ديزيره سقال

فاوست

(أو كتاب المعرفة)

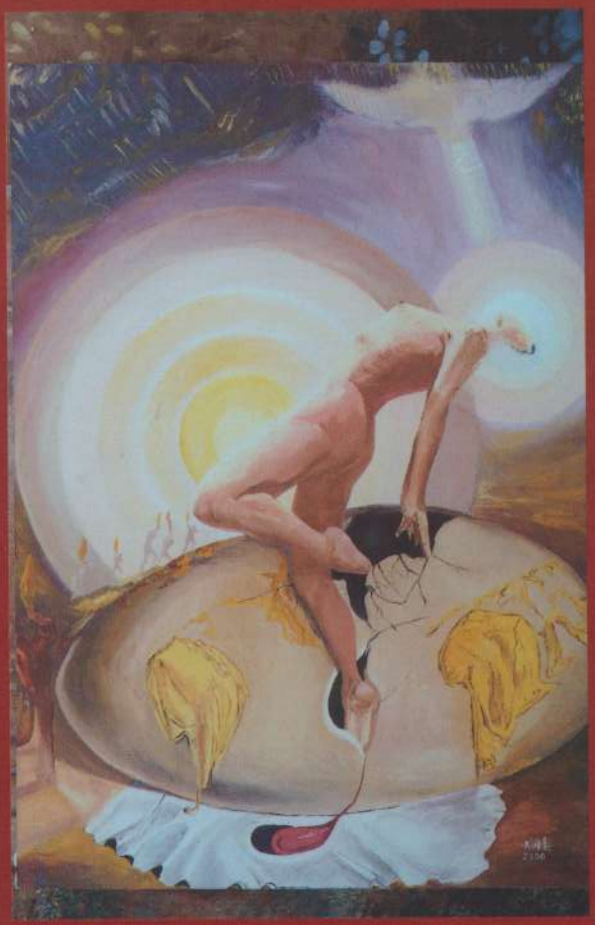

الأهلية

كانَ قبلَ الآلهةِ، ضميرًا لها في كلِّ شيءٍ، وهو يَترَنَّمُ فوقَ الأولمبِ، على مَرْأًى منها ومَسْمَع. وكانَ نِعْمَةً سَماويّةً تَهْتَزُّ في الأثيرِ، وَعْيًا عميقًا يَخْتَرِقُ ضميرَ الوُجودِ كُلِّهِ.

وعِنْدَما ذابتِ الآلهةُ، وغابَتْ في إلهٍ واحدٍ، قادرٍ، كانَ في ضَميرِهِ أيضًا، جزْءًا منهُ، يملأُ صوتُهُ زَوايا الفردوسِ، ويَشْتَفُّ الحَقائِقَ المطْلَقَةَ، ويقرأُ «الوثائقَ الكونيّةَ» عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ ...

وحينَ حَلَّ، مُكْتَشِفًا، في العالمِ، انشَغَلَ وَعْيُهُ عنْ ذاتِهِ بأَشياءِ العالمِ، فطارَتْ بهِ رحلةٌ هائلةٌ عَبْرَ قِمَمِهِ السوداءِ وأعماقِهِ الداكِنَةِ، يَسْبُرُ فيهِ، عَبَثًا، بِحارَ المعرفةِ، فلا يَقَعُ إلاّ على سَرابٍ. مِنْ وَعْيٍ إلى وَعْيٍ، ومِنْ ضميرٍ إلى ضميرٍ، طارَتْ بهِ رحلتُهُ مدى حَيَواتٍ طويلاتٍ، لم يَحْصُدْ في أثنائِها مِنْ بَلْقَعِ العالَمِ إلاّ الصدأَ والهَباءَ.

لكنَّهُ، في نهايةِ الزمنِ الماحِلِ، انفجرَ أمامَ عينيهِ يَنبوعُ اليقينِ، ثَرًّا، من أقصى أعماقِهِ، فهَتَفَتْ له القِمَمُ والزوايا، وهَتَفَ لهُ المدى...

من هنا استمدَّ اسمَهُ: «فاوست»، أو كائنَ البَحْثِ عن اليقينِ؛ وكان اسمُهُ له هُوِيَّةً ومَعْدِنًا وجوهرَ ذاتٍ. ولكنه كانَ، أيضًا، مَلْحَمَةَ الوعيِ في العالمِ حيثُ الازدواجُ والانشطارُ، وحَيْثُ تَنْسى الأشْياءُ معنى الجَوْهَرِ ونِعْمَةَ التَوَحُّدِ.

هكذا عَرَفْتُهُ: صدًى لكلِّ الأزمانِ والحَيَواتِ والأماكنِ، إلهًا خالقًا ـ مخلوقًا، مُتَجَسِّدًا في لحمٍ ودمٍ. هكذا عَرَفْتُهُ: وَعْيَ المُطْلَقِ في الزمنيِّ، وتَزَمُّنَ المُطْلَقِ في حَيَواتِ البَشَرِ.

ولم يكن كائناً واحدًا، ولا كانَ ذاتاً لِشَخْصٍ. رأيتُهُ فينا جميعًا، ينامُ وينهضُ في القرارِ.

ديزيره سقال

فاوست

(أو كتاب المعرفة)

الطبعة الأولى ٢٠٠٣

صورة الغلاف بريشة الفنّان : رفيق الهاشم

الإهداء :

إلى أِلكسَندر مانولي
المعلّم الأكبر

١ ـ صوت:
كلُّ شيءٍ بهِ كُوِّنَ،
ولا شيءَ من غيرِهِ.
الخارجُ والداخِلُ
ضميرٌ له، لونٌ، وصَوت.

٢ ـ صوت:
نورٌ/ منَ الشمسِ الولادةُ
وعَبْرَها نسيمُ الحقيقة.
«كلُّ ما كانَ فهو الذي سيكونُ.»
أرضٌ كالضوءِ
على جسد كالضوء...
وبين الفردوس والفردوس
حياة طويلة كالدائرة...

الفصل الأول:
الفردوس

ـ ١ ـ

من الشمس كان مولده، ومن الشمس استَمَدّ نورَه، فهو والشمسُ توأمان. فإذا رَنا إلى الحقائقِ اخترَقَ أعماقَها، ولمْ يرَ منها إلاّ الجواهرَ. وإذا أرادَ أن يفتَحَ أعماقَه للأشياء اغتسَلَت بنوره كما يَغتَسِلُ هو بنور الشمس، فتَفيضُ من محبَّتِهِ ثَمَرًا يانِعًا، ومِنْ وَهْجِ قَلْبِهِ دِفئًا، ومِنْ جَمالِهِ رَونَقًا.

وإذا كان الصمتُ، وَلَّدَ الصوتَ من «الكَلِمَةِ»، فلا حرفَ إلا من السُلَّمِ الكَونيِّ، ولا إيقاعَ إلا أناشيدَ النور العُلَوِيِّ، تُرَنِّم للشمسِ ولهُ...

هامش:
في البدءِ خلقَ اللهُ السمواتِ والأرضَ... وروحُ اللهِ يرفُّ على وجهِ المياه...
(سفر التكوين)

هامش:
وقالَ اللهُ: لِيَكُنْ نورٌ، فكان نورٌ.
ورأى اللهُ النورَ إنّه حَسَنٌ.
وفَصَلَ اللهُ بينَ النور والظلام.
(سفر التكوين)

ومَتى اسْتَدارَ نحوَ ذاتِهِ جَنى مِنها أَلَذَّ ما يُمْكِنُ أن يُجنى في الوجودِ وأشْهى، مُغَمَّسًا بعَبَقِ الضوءِ ورائحتِه... وكانَ في كلِّ شيءٍ يَرى وجهَ الآبِ، ويرى الآبُ وجهَهُ فيهِ...

مَسَحَ الحقَّ بالحَقِّ، فأولَدَهُ الحقيقةَ السَرمَدِيَّةَ، وهَدْهَدَ النورَ في حِضْنِهِ فتَوَلَّدَتْ فيهِ حَيَواتٌ أينَ مِنها إشراقةُ الشمسِ وسُطوعُ النجومِ؟ وأرسَلَ قيثارَ صَوتِهِ غِناءً، فانبَثَقَ سُلَّمُ الأصواتِ في الكونِ، تترنَّمُ بهِ المَلائكَةُ، ويُمَجِّدُ بهِ الربُّ.

كانَ كلُّ ما فيهِ رائعًا كالفِردَوسِ، سَرْمَدِيًّا، مُنجَزًا بتَمامٍ؛ فإمّا رَنا إليهِ مُتأمِّلاً لاقى وجهَ الآبِ فيهِ، فعادَ مِن تأمُّلِه وقدِ اكْتَنَزَ كلَّ حقيقةٍ، وتَنَسَّمَ عَبيرَ الغبطَةِ العَميقةِ، وصارَت ذاتُهُ من محَبَّتِهِ ثلاثًا: واحدةً تُشرقُ فيها هَندَسَةُ الجَواهِرِ والأعْراضِ، وثانيةً تتجسَّدُ فِعْلَ الكَمالِ المُطْلَقِ، وثالثةً تُمسِكُ بالذاتَينِ معًا، وتَجذُبُهُما باستِمرار... فَيَسْتَقيمُ معنى الوجودِ في ثلاثةِ أقانيمَ: نورٍ، وحَياةٍ، وحُبٍّ...

٣ ـ صوت:

لا نورَ إلا له،
وهو وليدُ النور.
مِنْ نَفَسِ الآبِ كانَ ـ
غَطّاهُ «الطينُ»: ماءً وترابًا
ولكنَّ جَوهَرَه مِن ضِياء...

هامش:

ونَفَخَ في أنفِهِ نَسمَةَ حياةٍ، فصار الإنسانُ «نَفْسًا» حيَّةً.

(سفر التكوين)

لم يكنْ بحاجةٍ إلى أيِّ شيءٍ، لأنَّ فيهِ روحَ كلِّ شيءٍ؛ فلا جوعَ، ولا عَطشَ، بل ماءُ الحياةِ وإكسيرُ الخُلودِ.

لم يكن بحاجةٍ إلى الكلامِ، لأنَّ «الكلمةَ» كانَتْ تملأ زوايا كِيانِه، وتتفتَّحُ أهازيجَ لا تُعَدُّ، ولا تُحصى...

كانَ فيهِ روحُ كلِّ شيءٍ، وكلُّ شيءٍ يُقيمُ فيهِ ويَكتَمِلُ به...

– ٢ –

كانَ كلُّ شيءٍ لهُ مُباحًا، يذوقُهُ ويَكتَشِفُ أعماقَه. فإذا ارتأى أنَّ نورَ النهارِ يُنضِجُهُ غاصَ عليهِ يَمْتَحُ مِن كُنوزِهِ، ويَقتَنِصُ لآلئَهُ في كلِّ مَكانٍ. وإذا عَرَفَ في ظلامِ الليلِ تَفتيقًا لبراعمِ روحِهِ غارَ فيهِ، بانجذابٍ أثيريٍّ، وراءَ ما يجعلُ هَدْأةَ الظلامِ مُضَمَّخَةً بالنور.

٤ – صوت:

حينَ انشَدَّتِ النَفسُ لتَكسوَ الضوءَ قِشرًا،
كانَ/
وبهِ اختُصِرَ الأزَلُ والأبَدُ،
وبهِ لَخَّصَ الآبُ مَشيئتَهُ،
فكانَ، مثلَهُ، عَميقًا،
يُشْرِفُ على كلِّ شيء.

هامش:

وقال اللهُ: لِنَصْنَعِ الإنسانَ على صورتِنا كمِثالِنا، وَلْيَتَسَلَّطْ على سَمَكِ البَحرِ وطَيْرِ السماءِ والبَهائمِ وجَميعِ الأرضِ...

(سفر التكوين)

٥ ـ صوت:

الموتُ والحياة

طَرَفا تاريخٍ واحدٍ

لا تاريخَ لهُ ـ

كِلاهُما طَرَفا الدائرة...

وفي مثلِ هذه الإباحةِ كان انجذابُ التكامُلِ نحو نَفسِهِ، حتى لم يكُن ثمَّةَ مِن أضدادٍ، لأنّ الكلَّ يَتكامَلُ في الكُلِّ...

عَبَرَ الموتَ فرأى فيهِ الحياةَ، وعَبَرَ الحياةَ فاشتَفَّ منها نِعمةَ الموتِ متى انجَلَتْ حَقيقتُه: فإذا هو جسرٌ إلى الحياةِ يُضيءُ الدربَ نحوَ الحقيقةِ، ويُعَرّي الذاتَ أمامَ ذاتِها، فيَكشِفُ، عَبرَ العَودِ المستمرِّ، عن قِمّةِ الحقائقِ التي لا حقيقةَ بعدَها.

إنْ أنصَتَ سَمِعَ، فهَدْهَدَ مَسْمَعَه صوتانِ: واحِدٌ يَتَناهى إليهِ مِنْ عَلُ، مِن طَبَقاتِ الملائكَةِ الصوتيَّةِ، فهوَ صوتٌ أثيريٌّ يَرفَعُهُ باستِمرار، وثانٍ يَسمو إليهِ مِنْ داخِلُ، فتَمتلِئُ بهِ روحُهُ، وترتعِشُ ذاكِرَتُه، ويَرقُصُ كلُّ كِيانِه. وبَيْنَ هذينِ الصوتينِ مدًى أضيقُ من الذَرَّةِ، ولكنّه أعمَقُ من الكونِ...

كانَ كلُّ شيءٍ لهُ مُباحًا؛ وكانَ عاريًا.

كانَ حُسْنَ الخَلائقِ: جزءًا من «النور»، ولا حِجاب.

هامش:

وكُنتُم أمواتًا فأحياكُم، ثمَّ يُميتُكم، ثمَّ يُحييكُم، ثُمَّ إليهِ تُرجَعون...

(قرآن كريم)

٦ ـ صوت:

لا يأتَمِرُ بهِ ـ بل بنَفسِه.

مِساحَةُ الإنسانِ كالكونِ/

مِساحةُ الكونِ كالإنسانِ/

وبَينَهُما

مَصيرٌ كالدائرةِ،

ضيقٌ كثُقْبِ الإبرةِ،

ومعَ ذلكَ يختصِرُهما مُجتمِعَينِ.

صوتُهُ ضميرُ الأصواتِ كلِّها، وروحُهُ تَرنيمةٌ سَرْمَديَّةٌ تَصِلُ الصَوتَ الهابطَ من «سُدْرَةِ المُنتَهى» بالأصواتِ الصاعِدَةِ نحوَها مِنْ أسفَلُ.

كانَ حُسْنَ الخَلائقِ؛ وكانَ عاريًا.

جزءًا من النورِ، ولا حِجاب؛

جسرًا من الأهازيجِ نحوَ أعماقِ الغِبطَةِ،

ومدًى لا يَسَعُهُ الزمانُ ولا المَكان.

كانَ بكْرَ الخلائقِ. منَ النور إلى النور؛

عاريًا، عاريًا،

وفي عُريهِ الأثيريِّ صَفاءُ القُدرةِ الإلهيَّةِ حينَ تَمسَحُ النورَ بالطُهْرِ السَرْمَدِيِّ، أو تَمسَحُ الطينَ الغُفْلَ بالحياةِ.

عاريًا، عاريًا...

بينَهُ وبينَهُ كلُّ ما كُوِّنَ في المَدى،

ومعَ ذلكَ كانَ قريبًا منهُ حتى الالتِصاقِ...

هامش:

أللهُ نورُ السمواتِ والأرض...

(قرآن كريم)

٧ ـ صوت:

كلُّ ما كانَ انشَطَرَ؛
وكلُّ ما انشَطَرَ واحِدٌ.
لا واحِدَ إلا ولَهُ اثنانِ ـ
لا اثنانِ إلا ولهما واحدٌ/
ومعَ ذلكَ
يبقى العددُ سِرًّا أكبرَ...

وإذا غَبَّ منَ النور العُلَويِّ ما أوْلَمَتْ بهِ روحُهُ نامَ في أهزوجَتِهِ الأثيريَّةِ، وأقفَلَ عَينيهِ على رَوعَةِ النِعْمَةِ وتَرانيمِ الدِعَةِ والسلامِ...

ـ ٣ ـ

وإذا يدُ الباري امتَدَّتْ، فانشَطَرَ العَدَدُ الأوَّلُ عَدَدَين، واندَاحَتْ من الذاتِ ذاتٌ ثانيةٌ، فها الذاتُ ذاتانِ، وها الوجودُ وجودانِ، وها نِعْمَةُ التَثْنِيَةِ اكْتَمَلَتْ...

وكانتْ «حَوّاءُ». بها يَبدأ كلُّ ازدِواجٍ مَعنًى جديدًا: فالشيءُ شيئانِ، ولا مَعنى للواحِدِ إلا متى انكَشَفَ بوساطَةِ الثاني.

هكذا كانَ الأول والثاني واحِدًا: فلا مَعنى لهما إلاّ معًا، ولا معنى للفِردَوسِ إلا بهِما.

هامش:

وقال اللهُ: لنَصنَعِ الإنسانَ على صورتِنا كمِثالِنا... فخلقَ اللهُ الإنسانَ على صورتِهِ. على صورةِ اللهِ خَلَقَه. ذَكَرًا وأنثى خَلَقَهم. وباركَهم اللهُ وقالَ لهم: انمَوا واكثروا واملأوا الأرضَ وأخْضِعوها.

(سفر التكوين)

هامش:

إنّا خَلَقناكُم مِنْ ذَكَرٍ وأنثى، وجَعَلناكُم شُعوبًا وقَبائلَ لِتَعارَفوا.

(قرآن كريم)

هامش:

هنَّ لِباسٌ لكم، وأنتم لباسٌ لهنَّ.

(قرآن كريم)

٨ ـ صوت:
ثلاثةٌ يكونونَ:
أقانيمَ ثلاثةٌ في كونٍ واحد/
آدمُ وحوّاءُ والأفعى...
ولكنْ كلُّ شيءٍ كانَ منَ الضوءِ/
كلُّ أثيرٍ/ كلُّ نَفْس.
ثلاثةٌ يكونون:
مُثلّثَ الانجذابِ الدائمَ ـ
الأوّلُ والثاني واجتماعُهُما.

٩ ـ صوت:
هلّلويا!
بارِكَ الصوتُ العدَدَ!
بارِكَ الحرفُ العَدَدَ/ هلّلويا.
الكونُ غابةٌ من الأعداد،
أهزوجةٌ من الأصواتِ والحروف،
ولا فراغَ...

وانجلى للمرّةِ الأولى سِرُّ العَدَدِ: حيثُ يصيرُ الرقمُ حرفًا، وتصيرُ الحروفُ أرقامًا... وللمرّةِ الأولى انكَشَفَ الرقمُ في صورةٍ، فتَجَسَّدَ، ونزَلَ إلى العالَمِ، يَمشي فيهِ خَلْقًا سَويًّا، من لَحمٍ ودَمٍ. فاجْتَمَعَ بهذا ثلاثة: رقمٌ، وحَرفٌ، وصوت...

وإذا هذه الأرقامُ سُلَّمٌ خاصٌّ من ضَميرِ التكوينِ، يُزَنِّرُ الصوتَ والأشياءَ، ويجعَلُ المدى أكثرَ امتِدادًا، وأعمقَ غَورًا مِمّا هوَ لحظةَ العَيانِ.

ـ ٤ ـ

لكنَّ شيئًا ما، في ضميرِ الكونِ العَميقِ، كانَ يَدفَعُ بهِ إلى الذهابِ حتى أقصى قَدَرِه: رِحلَةٌ كُبرى، وتَقبضُ كفُّهُ على النور في أبهى حِلَّةٍ من الحِلَلِ الكَونيَّةِ. رحلةٌ، وتلْمسُ كفُّهُ جوهَرَ السُطوعِ حيثُ «ثَمَرَةُ المعرفَةِ» واليقينُ، وقاعُ الحياةِ.

هامش:
وفرَغَ اللهُ في اليومِ السابعِ من عَمَلِهِ الذي عَمِل. واستَراحَ في اليومِ السابعِ من جَميعِ عَمَلِهِ الذي عَمِل. وبارَكَ اللهُ اليومَ السابعَ وقَدَّسَه.
(سفر التكوين)

هامش:
وعلَّمَ آدَمَ الأسماءَ كلَّها، ثمَّ عَرَضَهم على الملائكة...
(قرآن كريم)

وهَلْ يعثــرُ على الحقِّ مِن غيرِ الوُلوجِ إلى أرضِ الجَوهَرِ؟ أمْ هَلْ يفيضُ فيهِ الإشراقُ إلا إذا طاوَلَتْ كَفُّهُ القاعَ الأقصى لِوَلَهِ المعرفَةِ؟

كانَ شيءٌ ما يَحدوهُ على أنْ يَتركَ تلكَ الأرضَ وينزلَ في سُلَّمِ المادّةِ، وئيدًا، بثباتٍ، إلى غَمرةِ الكونِ اللامُتَناهي. هناكَ، حيث تنفلِشُ الأسرارُ، وتَبُصُّ الأنوارُ النيِّراتُ حَيَواتٍ متفرِّقَةً، يجمَعُها سِلْكٌ رَهيفٌ، رَهيفٌ، لا يُماثِلُهُ في الدقَّةِ مَثيلٌ... فلعَلَّهُ، إذا اكْتَنَهَ سِرَّ «النَفْسِ» في عالَمِ المادَّةِ عادَ مِنْ جديدٍ إلى أثيرِ الروحِ يُوَسِّعُ فِعْلَ الحقيقةِ التي لا تَنضُبُ.

رحلَةٌ، إذًا، إلى مَكانٍ آخرَ، على القَناةِ الكَونيَّةِ المفتوحَةِ، بها يستَبطِنُ كفَّةَ المَجهولِ، ويحقِّقُ ذاتَهُ، وفيها يحقِّقُ أيضًا سعادةَ الحِكمةِ الكونيَّةِ التي قَدَّرَتْ لكلِّ شَيءٍ أنْ يتَكامَلَ فيها، فيخرجَ بحثًا عنِ امتِلاءِ ذاتِهِ، ثمَّ يعودُ لِيَنعَمَ بالسَكينَةِ الأبديَّةِ، وبالهُدوءِ والسلامِ الإلهيَّين.

١٠ ـ صوت:
ينزلُ من النور إلى الظلامِ؛
يَبحَثُ عن ذاتِهِ،
ليعودَ إلى النور...

١١ ـ صوت:
بينَ هذا المدى
والضياءِ الذي اخترَقَ الذاتَ
نحوَ الأبَدْ
حِكمةٌ قُدِّرَتْ
تتقاطَعُ في ذاتِنا
كرَذاذِ الزَبَدْ...

هامش:
وأنْبَتَ الربُّ الإلهُ من الأرضِ كلَّ شجرةٍ حَسَنَةِ المنظَرِ وطَيِّبَةِ المَأكَلِ، و«شَجَرَةَ الحياةِ» وسَطَ الجنّةِ، و«شَجَرَةَ مَعرفَةِ الخيرِ والشرِّ.»
(سفر التكوين)

كانَ انجذابُهُ نحوَ «شجرةِ الحياةِ» وثمَرَتِها انجذابًا طبيعيًّا، وقدَرًا أزَليًّا، لا فَكاكَ منهُ، ولكنَّهُ حَتْمٌ لِيَنزَعَ نحوَ الاكتِمالِ في أعظَمِ رِحلةٍ يقومُ بها الجنْسُ البشريُّ.

كانَ انجذابُهُ إلى حيثُ الضوءُ،

إلى ما فوقَ الرقمِ والصوتِ والعدَدِ...

كانَ انجذابُهُ إلى «الذي هوَ»، يَشتَفُّ النِعْمَةَ نِعَمًا، ويمتلِئُ نورًا،

يَتَمَلّى النورَ/ يَتَمَلّى جَوقَتَهُ الأثيريَّةَ؛

يُتَمِّمُ فيهِ نِعمةَ الحياةِ/ يُتَمِّمُ الحِكمةَ السرمَديَّةَ.

لا شيءَ إلا بهِ،

وكلُّ ما كانَ فهوَ الذي سَيَكونُ.

عَميقٌ كالأزَلِ،

بعيدٌ كالأبَدِ،

١٢ – صوت:

الحقيقةُ وَليمةٌ للروحِ،

ولكنَّها عَطَشُ الأرواحِ إلى البحثِ

حينَ لا تجدُ الأرواحُ

إلا ذاتَها.

هامش:

ويا آدَمُ، اسكُنْ أنتَ وزَوجُكَ الجنَّةَ، فكُلا مِنْ حَيثُ شِئتُما، ولا تَقْرَبا هذهِ الشجَرَةَ فَتَكونا منَ الظالِمينَ.

(قرآن كريم)

ولكِنَّهُ يَشُدُّهُما معًا إليهِ،
وفيهِما يَتَمَدَّدُ...

ـ ٥ ـ

وإذا الثمَرَةُ التي لَسَنَ تَجعَلُهُ يَندَفِعُ إلى أقصى قَدَرِهِ، إلى حيثُ يبدأ الدائرَةَ، ولا وُقوفَ. كانتِ الثَمَرَةُ رائعةً، وفي مَذاقِها طَعمُ كلِّ الثِمار، وطَعمُ الوَعْيِ الذي يَكشِفُ لهُ عنْ مَذاقِ الضوءِ والظلامِ أيضًا...

تَذَوَّقَ كلَّ شيءٍ، واختَطَّ لهُ كلَّ شيءٍ، فَتَحَرَّكَ نحوَ تَحقيقِ ذاتِهِ، وصارَ مُهَيَّأً لِثِمار «شجرةِ الحياةِ» في وَسَطِ الجنّةِ.

حرَكةٌ طَويلةٌ، لا تَهدأ، يَتَذوَّقُ فيها «الثمَرَةَ» كلَّ لحظةٍ.

حركةٌ طويلةٌ لا تَهدأ.

قَدَرٌ يَبدأهُ ليصلَ إلى الشجرةِ الرائعة،

١٣ ـ صوت:
لماذا تُلعَنُ «الحيّةُ»
وقَد عَلَّمَت آدَمَ أن يكونَ إنسانًا
ويبحَثَ عن ذاتِهِ؟
ـ تُراها أضاءَتْ لهُ الطريق ؟

هامش:
فَوَسْوَسَ إليهِ الشيطانُ، قالَ: يا آدَمُ، هلْ أدُلُّكَ على شجرةِ الخُلْدِ ومُلْكٍ لا يَبْلى؟
(قرآن كريم)

فيعيشُ إلى الأبَدِ ـ
من النور إلى النور،
ولكنّه ما بينَهما
يَكتَشِفُ كلَّ أنواعِ الظلامِ...

ـ ٦ ـ

واكتَشَفَ آدَمُ تجربَةَ العُرْيِ: عاريًا، عاريًا كما الشمسُ، ولكنّه موقِنٌ مِنْ عُريهِ؛ ولا غطاءَ حيثُ هو إلا وُرَيقاتِ تينٍ، وبعضَ ميثاقٍ من نور. لا غطاءَ إلا ذاتَه حيثُ تتعطّشُ إلى ذاتِها في رحلةٍ طويلةٍ سُمِّيَتْ أعمارًا، وتَتوقُ إلى الانفصال، لتتّحِدَ، من جديدٍ، بجوهر الكونِ.

عُريٌ، فانفِصالٌ، فوحدةٌ...

١٤ ـ صوت:

العُريُ طُهرٌ
واغتِسالٌ بنور الشمس/ والعُريُ
فضاءُ حُرِّيّةٍ
حيثُ تَتكَشِفُ الذاتُ أمامَ ذاتِها
في أوّلِ الوجودِ،
في نقطةِ البدايةِ...

والعُريُ يَفضَحُ السوءاتِ
لأنّها تكونُ بعيدةً
عن صَفاءِ النور.

هامش:

يا بَني آدَمَ، قد أنزَلنا عليكم لباسًا يُواري سوءاتِكم، وريشًا، ولِباسَ التقوى ذلكَ خيرٌ؛ ذلكَ من آياتِ اللهِ لعلّهم يَذكُرون.

(قرآن كريم)

هامش:

...فأكَلا، فبَدَتْ سوءاتُهُما، وطَفِقا يَخصِفانِ عليها من وَرَقِ الجنّةِ. وعصى آدَمُ ربَّهُ فغَوى...

(قرآن كريم)

هكذا تمّتِ المَشيئَةُ حينَ انداحَ من رحابِ الفِردَوسِ ظِلُّ المَلَكوتِ يغمُرُ آدَمَ. ومتى خرجَ باحِثًا عن «النعمةِ» انصَبَّ يقينُهُ على فِعْلِ العُثور، فيكونُ، في خارجِ الفِردَوسِ، صورةَ انشِطار: كائنًا مزدَوجًا من طينٍ وروحٍ، أو «وردةً حَمراءَ» تنمو في قلبِ الكونِ...

ولكنّه، إذْ خَرَجَ من الفردَوسِ،

وعى هذا الانشِطارَ، وكانَ وَعيُهُ مُفجعًا.

أرادَ الحقيقةَ المطلَقَةَ، فانطَلَقَ باحِثا عنها في رحابِ الكونِ، بعدَ أن خالَها هناكَ فِعْلاً يصلُ إليهِ الإنسانُ.

ووعى، كذلكَ، أنَّ الإنسانَ، متى انكَسَرَتْ أجنِحَتُهُ وسَقَطَ، ازدَوَجَ وسَلا، ثمَّ عادَ في مَسيرتِهِ ليلتئِمَ من جديدٍ «وردةً حَمراءَ» تنمو في داخِلِ الجاذِبيَّةِ الخفيَّةِ التي تشدُّ ما انشَطَرَ.

عُريٌ، فانفِصالٌ، فوحدةٌ...

١٥ ـ صوت:

قيلَ إنَّ الإنسانَ
نِصفانِ من نورٍ ومن ظلام،
وفيهِ صوتُ الشرِّ
وصوتُ الربِّ الذي يُبارِكُ.

١٦ ـ صوت:

«الوردةُ الحمراءُ»
في أجنَّةِ الحَقيقَةْ
تَنمو على أطرافِها السَحيقَةْ
وتَفتَحُ المُقَلْ
لِتُبصِرَ الآجالَ في أعماقِنا،
ونَقطفَ الورودَ من قَرارِنا
مَغموسةً بنكهَةِ الضياءِ والأزَلْ،
رقيقةً... رقيقَةْ...

هامش:

وقال الربُّ الإله: هُوَذا آدَمُ قد صارَ كواحدٍ منّا، يعرفُ الخيرَ والشرَّ. والآنَ، لعلّه يمدُّ يدَهُ فيأخذ من «شجرةِ الحياةِ» أيضًا، ويأكلُ فيحيا إلى الدهر.

(سفر التكوين)

هكذا تَمَّتِ المَشيئةُ.

هكذا خرجَ آدَمُ، لعلّه يجدُ «الحقيقةَ».

- ٧ -

وكانَ أن أُقْفِلَ بابَ الفردَوسِ سيفٌ من نار...

وكانَ أن سارَ آدَمُ باتجاهِ «شجرَةِ الحياةِ»

يرى، ويَعي، ويَسمَعُ،

يَتَساءلُ عن نِعمَةِ «الحقيقةِ» في الرحلةِ الحَتميَّةِ التي تَقودُهُ إلى فَجرِ اليَقينِ...

أُقْفِلَ بابُ الفردَوسِ

لِيَنكَشِفَ من جَديدٍ وقد صارَ كلُّ شيءٍ فيه.

أُقفِلَ بابُ الفردَوسِ،

ولكنْ...

لتتجلّى الحقيقةُ مضيئةً، من جديدٍ...

١٧ - صوت:
من الفردوس وإليه.
أوّلُ الدائرةِ هوَ،
وآخرُ الدائرة...

هامش:
فطردَ آدمَ، وأقامَ شَرقيَّ جنّةِ عَدَنَ الكَروبينَ وبريقَ سيفٍ متقلّبٍ لحراسةِ طريقِ «شجرةِ الحياةِ.»
(سفر التكوين)

١ ـ صوت:
نَزَلَ الروحُ في جَسَدْ،
وارتَمى في ظَلامِهِ.
نَسِيَ النورَ والأبَدْ،
باحِثًا عن حِجًى وغَدْ
موغِلاً في حُطامِهِ...

٢ ـ صوت:
باحِثًا مِن خَلَلِ الوقتِ
وإيقاعِ المكانْ
عن دروبِ المَعْرِفَهْ،
غيرَ أنَّ اللَهَبَ الصاعِدَ من عُمْقِ
الكِيانْ
خَبَّأَتْهُ العَجْرَفَهْ...

الفصل الثاني:
العالم

ـ ١ ـ

خارجَ الفردوسِ كانَ كلُّ شيءٍ مُختَلِفًا.

انكَسَرَتْ أجنِحَتُهُ و«سَقَطَ» إلى العالمِ، فَمَسَحَ ذاكرَتَه النسيانُ، وماعَتْ ذاتُهُ في ضَبابِ النُشوءِ، فحاوَلَ أنْ يُشَكِّلَها من جَديدٍ: بينَ غُبارِ الأشكالِ وغَمْغَمَةِ الأشياءِ. أيكونُ الفِعْلُ، بَعْدُ، طَريقَهُ إلى ذاتِهِ، أمْ أنَّ الجَهْلَ الذي اكْتَنَفَهُ يعبرُ من خلالِهِ إلى ضوءِ الحَقيقَةِ؟

خارجَ الفردوسِ كانَ كلُّ شيءٍ مختلفًا: الذاتُ ذواتٌ مُنْشَعِبَةٌ في الزمانِ، تلُمُّ مَلامِحَها عَبرَهُ، وتَبحث عن التِئامِها. انصَدَعَ وَعيُهُ... لَبسَتْهُ القِشرَةُ فغابَتْ عنهُ البَصيرَةُ، وانسَلَّ في الضبابِ الأسوَدِ يتَلَمَّسُ الأشياءَ، ويَتناسَلُ في الزَمَنِ...

هامش:
فأخرجَهُ الربُّ الإلهُ من جنّةِ عَدْنٍ
ليَعملَ الأرضَ التي أخِذَ منها.
(العهد العتيق)

٣ ـ صوت:

عَرَقي على الأرضِ التي بُلِّغْتُها،
والوَعْيُ يُتْلِفُهُ العَرَقْ.
ما زِلْتُ في تيهِ الظُنونِ مُعَلَّقًا
والليلُ في عَينيَّ يَنشُرُهُ الغَسَقْ.
ما زالَ يُتْلِفُني طَريقي ـ
أأظَلُّ أبحَثُ عن بَريقي
في ما يموتُ وما انسَحَقْ؟!

٤ ـ صوت:

القلبُ يبحثُ في الدروبِ
ولا دُروبَ سِوى مِزَقْ...

يتقاسَمُ المَشاقَّ وزوجَهُ التي تُشكِّلُ عدَدَهُ الثاني. وحدَهُ، وحدَهُ في مُيوعَةِ العالَمِ وجَليدِ المعرفَةِ المقَنَّعَةِ بالدَيجور، يحاولُ أنْ يَرْقى، أن يَسْمو إلى ظِلِّ السِمْتِ، إلى رائحَةٍ قد تُخبرُهُ عن أثيرٍ، يَعَضُّ الهواءَ بأسْنانِهِ، فيرتَدُّ عليهِ بالضَحِكِ الساحِقِ...

واكَبَ قايينَ إذْ سَحَقَ جُمجُمَةَ أخيهِ، فَرَضَّتْهُ اللعنَةُ، وانكَفَأ على نفسِهِ، تحتَ الأرضِ، في الكُهوفِ الدَياجيرِ، ينثرُ النَدَمَ فوقَ الندَمِ، ويَحوكُ من ذاتِهِ مِحبرَةً للأبديَّةِ... ضَلالٌ، ضَلالٌ... تَيهٌ في تَصعيدِ الذاتِ، ثمَّ انسِحاقٌ وَخيمٌ في تَفاهَةِ الاكتِشافِ.

ضَلالٌ... ضلالٌ...

ويصرُخُ، يصرُخُ: «أيَّتُها الحقيقةُ السَرابُ، أيَّتُها الحَقيقةُ، ماذا فَعَلْتِ بي؟» ولكنَّ طَعمَ «الثمَرَةِ» كان لا يزالُ يَلْسَعُ كِيانَه بكامِلِهِ...

هامش:

يومَ خلَقَ اللهُ الإنسانَ على شَبَهِ اللهِ عَمِلَهُ ذَكَرًا وأنثى. خَلَقَهُ وباركَهُ ودَعا اسمَه آدَمَ يومَ خُلِقَ.

(العهد العتيق)

هامش:

وكَلَّمَ قايينُ هابيلَ أخاهُ. وحَدَثَ إذْ كانا في الحقلِ أنّ قايينَ قامَ على هابيلَ أخيهِ وقتَلَهُ. فقالَ الربُّ لقايينَ: أينَ أخوكَ؟ فقالَ: لا أعلَمُ؛ أحارسٌ أنا لأخي؟! فقالَ: ماذا فَعَلتَ؟ صوتُ دمِ أخيكَ صارخٌ إليَّ منَ الأرضِ.

(العهد العتيق)

٥ ـ صوت:

أيُّها الظلامُ،
يا غِيابَ الوَعي،
ماذا فَعلتَ بي؟

٦ ـ صوت:

ينزلُ القَهْرُ مِن ظلمةِ الليلِ
نحوَ المَدى.
يتفتَّحُ ناسًا. يَفورُ على الأرضِ
في مُدُنٍ للردى.
يُنشِبُ التِيهُ أظفارَهُ،
ويمُطُّ الجماجمَ عن بَلْقَعٍ وصدى...

٧ ـ صوت:

ملحٌ... ملحٌ... ملحٌ...
لا شيءَ سوى المِلحِ على هذي
الأرضِ الرَمْضاءْ.

وفي سَدومَ عانى لعنةَ البَغْيِ والتَخَلّي، حينَ دُعِيَ فلمْ يستَجبْ، وأتاهُ «لُوطُ» فَعافَهُ مُشيحًا، جَبّارًا، يَسحَبُ ظِلَّهُ الباغي على حُطامِ الدنيا. إذْ ذاكَ، ماعَتْ ذاتُهُ في النار، واندَلَعَتْ عليهِ كِبريتًا وجَمرًا، وتحَجَّرَتْ عَيناهُ في تمثالِ مِلحٍ عندَ بابِ المدينَةِ، عِبْرةً لِمَنْ يَعتَبِر...

وفي بابلَ عانى تَيهَ الجَبَروتِ، فاشرَأبَّتْ ذاتُهُ تَبقُرُ ظِلَّ السَماءِ، وترتَفِعُ بُرْجًا ضاربًا في الشُموخِ، تَحدّى القدَرَ، ومَدَّ يدَهُ، باغِيًا، مُستَجرِئًا، يضربُ وجْهَ اللهِ، ويُعلِنُ نفسَهُ إلهًا فوقَ كلِّ الآلِهَةِ... في ذلكَ الزمانِ، حَلَّ الجَهْلُ في الذاتِ، وانكَفأتْ روحُهُ ذَلولاً، خائبةً، تصطادُ الخَيبةَ والندَمَ، وتشرُدُ في بقاعِ الأرضِ، مُضَعْضَعَةَ اللسانِ، شعوبًا تَزحَفُ كالنَملِ على بَسيطَةٍ خاويَةٍ، قَفراءَ... وانشَقَّ البُرْجُ عن وَعيٍ غائرٍ في الظُلُماتِ...

وَعيٌ يَصبو إلى النور،

هامش:

وقال الربّ: إنّ صراخَ سدومَ وعمورةَ قد كَثُر، وخطيّتهم قد عظمَتْ جدًّا.

(العهد العتيق)

هامش:

فأمطر الربّ على سدومَ وعمورةَ كبريتًا ونارًا من عندِ الربّ من السماء...

(العهد العتيق)

هامش:

وبَكّرَ إبراهيمُ في الغدِ إلى المكان الذي وقَفَ فيه أمامَ الربِّ؛ وتطلَّعَ نحوَ سَدومَ وعمورةَ ونحوَ كلِّ أرضِ الدائرة؛ ونظرَ، فإذا دخان الأرض يصعد كدخان الأتون.

(العهد العتيق)

٨ ـ صوت:

فارَتْ على دُنيايَ بابلُ
فارتَدَيتُ مدى حُطامي؛
وتَشَقَّقَ الوَعْيُ المُبعثَرُ
بينَ ذاتي والرُكامِ ـ
الأرضُ سردابٌ
منَ الخِرَقِ التي فارَتْ
على خَلْقِ الظلامِ...

٩ ـ صوت:

هل كانَ غيرُ الغَيِّ في أقدامِنا
صوتَ المصيرِ؟
ـ غوري، عِظامَ الأرضِ،
مِلْءَ دَمي،
وقُدّي في مَراراتي ضَميري...

ولكنّه لا يطالُ إلا الليلَ الفاحِمَ.

وعيٌ يصبو،

ولكنّه مكبَّلٌ بالنقصِ، مَغلولٌ بالعَجز، مُنجَذِرٌ في الظلامِ...

وعيٌ... وعيٌ...

ولكنَّ الحاضرَ من سَرابٍ!

وفي أيّامِ نوحَ عادَ على أعقابِهِ، كأنَّ وعيَه نسيَ ما كانَ، أو أنّه لا يقرأ عِبَرَ الزَمَنِ وآياتِ الغابرِ. فشَقَّ الأرضَ غُرورًا، وتَسَلَّطَ عليها، وردَّ الآياتِ حديدًا، واستَغرَقَ في الغَيِّ حتى عَمِيَتْ بَصيرَتُهُ عن نور الحقيقةِ. آنذاكَ ارتَدَّ عليهِ غَيُّهُ بالنار والمِخلَبِ، وأمطَرَتْهُ الحياةُ مطرَ الموتِ أربَعينَ...

أربعينَ يومًا وأربعينَ ليلةً دَكَّ المطرُ مَضاجِعَهُ وأسوارَهُ، وصَيَّرَهُ عُتُوُّهُ آلاً مَنسِيًّا...

هامش:

وقالوا: هَلُمَّ نَبنِ لأنفُسِنا مدينةً وبُرجًا رأسُه بالسَماء.

(العهد العتيق)

هامش:

فبدّدهم الربُّ من هناكَ على وجهِ الأرض، فكَفّوا عن بُنيانِ المدينة.

(العهد العتيق)

أربعينَ يومًا وأربعينَ ليلةً، والأرضُ سريرٌ لمياهِ الموتِ...

أربعينَ أربعينَ، ووجهُ البسيطةِ امَّسَحَتْ ملامِحَهُ، فعادَ غُفْلاً ـ طينَ تَكوينٍ من جديدٍ...

ـ ٢ ـ

وبحثَ عن الحقيقةِ في مَلَكوتِ القوّةِ، فقزَّمَ الأشياءَ من حَولِه، وعَلّى عَرشَهُ فوقَ جَماجِمِها: من ظُلُماتِ بابلَ التي قَهَرَتْ، وعَزَّزَتْ سَبْيَها في كلِّ مُحيطٍ، إلى دَياجيرِ الفَراعِنَةِ الذين أعادوا «الشمسَ» إلى مَظْلَمَةِ الآلِهةِ المتعدِّدَةِ، إلى دُجُنّاتِ هيرودُسَ في القُدْسِ يغسلُ وجهَهُ ويديهِ بدمِ الأطفالِ، ليُبقيَ عَرشَهُ عاليًا فوقَ الجُثثِ والأشلاءِ وعَويلِ الثكالى...

١٠ ـ صوت:

الماءُ وجهُ الثرى،
واللهُ روحُ الغَمْرْ...
هل تائبٌ، يا تُرى،
يفتَحُ بابَ الفَجْرْ؟

١١ ـ صوت:

بقيّةُ الكلامِ في المَدى
تغورُ في وَجهِ الدروبْ،
لعلَّ بدْءًا يُرجِعُ الهُدى
وتُغسَلُ الذنوبْ...

١٢ ـ صوت:

الماءُ مَطْهَرْ،
ورَحِمٌ يولَدُ فيها مَنْ يَتوبْ.

هامش:

فها أنا آتٍ بطَوَفانِ الماءِ على الأرض، لأهلِكَ كلَّ جسدٍ فيهِ روحُ حياةٍ تحتَ السماء...

(العهد العتيق)

هامش:

قال نوح: رَبِّ، إنّهم عَصَوني، واتّبعوا مَن لم يزدْهُ مالُهُ وولْدُه إلا خَسارًا.

(قرآن كريم)

هامش:

وكان الطوفان أربعين يومًا.

(العهد العتيق)

بحثَ عن الحقيقةِ في مَجدِ القوّةِ، فجيَّشَ الجيوشَ، وافتَتَحَ المُدُنَ، وداسَتْ سَنابكُ خيولِهِ المَشرقَ والمَغربَ، وفارتِ الجيوشُ على وجهِ الثرى، تُعَلّي العُروشَ فوقَ البَغْيِ والقَهْرِ، وتَسحَقُ العاجزينَ، وتُغمِدُ راياتِها في قلوبِ الضعفاءِ والتاعِسينَ... لكنَّ دَهليزَ القوّةِ التي بحثَ فيها عن مجدِهِ انزاحَ عن خَواءٍ: وإذا بهِ يرى، بعدَ أن عادَ إلى ذاتِهِ، عَمَلَهُ باطِلاً، يَبورُ ثمَرُهُ في الزمَنِ كما الأرضُ اليَبابُ؛ فيعودُ ذَلولاً من رحلَتِهِ الرهيبةِ، لا يَحملُ في قلبِهِ سِوى الوَهمِ والخَيبَةِ والبُطلانِ...

باطِلٌ، باطِلٌ مجدُ القوّةِ،

عرشٌ يعلو وآخرُ يسقُطُ، والأرضُ مائعَةٌ مدى الدهرِ...

باطِلٌ بحثُهُ.

باطِلٌ مجدُ القوّةِ...

١٣ ـ صوت:

فارَتْ سَنابكُهُم على الدُنيا،
وضاعَ النورُ من عُمْقِ البَصيرَةْ،
ورَغا الدمُ المَحرورُ
في أرضٍ ضَريرَةْ ـ
مَنذا يُحَصّنُ روحَهُ
في لَحظةِ النَزْعِ الأخيرَةْ؟

١٤ ـ صوت:

تَيهٌ على تَيهٍ...
وآدَمُ يَجرَعُ الأنوارَ
مُظْلِمَةً، مَريرَةْ...!

هامش:

قامَ ملوكُ الأرضِ والعُظَماءُ، ائتَمَروا معًا على الربِّ وعلى مَسيحِهِ.
(العهد العتيق)

هامش:

وقالَ فرعَونُ: يا هامانُ، ابنِ لي صَرْحًا لعلّي أبلغُ الأسبابَ أسبابَ السمواتِ فأطلعَ إلى إلهِ موسى...
(قرآن كريم)

لأنَّ ما يولَدُ من سَرابٍ يذوبُ في الرملِ كما السراب...

باطِلٌ... باطِلٌ...

لا العرشُ، لا الصَولَجانُ، لا المُلْكُ،

لا الطينُ المُزَيَّنُ بالسَندَسِ والدِمَقْسِ،

كلُّ شيءٍ باطِلٌ...

ـ ٣ ـ

لكنَّ شيئًا فيهِ كانَ يَحدوهُ على المُتابعَة، وطَعمَ «الثَمَرَةِ» يشدُّهُ إليه. وخرجَ من قبرِ قايينَ إلى مُدُنِ العالَمِ يفتِّشُ فيها عن نُسْغِ الحضارةِ ـ عن سرِّ الأشياءِ في كُنْهِ الوجودِ...

رأى الآلهةَ تَحِلُّ في الإنسانِ، و«أبناءَ اللهِ» يتزوّجونَ بَناتِ البشرِ، فتكونُ «العَمالِقَةُ» منهم. ثمّ رآهم يَنبتونَ في جِلدِهِ وكِيانِه، جزءًا منه، في دورةِ الزمنِ الأبديّةِ. هكذا كانَ أنَّ

١٥ ـ صوت:

ما زالتِ الخَطَواتُ تغرقُ في الرمالْ

والليلُ يعصرُهُ جليدٌ مُظْلِمٌ،

وصدى سُؤالْ:

أيصيرُ طَعْمُ النورِ في أعماقِنا

ثمرًا حَلالْ؟

١٦ ـ صوت:

عَبَقَ الصدى بالليلِ

تَسْتُرُهُ ظِلالْ...!

هامش:

ثمّ التفَتُّ إلى جميعِ أعمالِيَ التي عَمِلَتْ يَداي، وإلى ما عانَيتُ من التَعَبِ في عَمَلِها، فإذا الجميعُ باطِلٌ وكآبةُ الروحِ، ولا فائدةَ في شيءٍ تحتَ الشمسِ.

(العهد العتيق)

هامش:

فيعودُ الترابُ إلى الأرضِ حيثُ كان.

(العهد العتيق)

١٧ ـ صوت:

وَعْيٌ على وَعيٍ-
وكلُّ الوَعْيِ أشياءٌ تَزولُ.
جسمٌ يَحوكُ ضَياعَهُ المَهزومَ
في الدنيا
ويَصْدَعُهُ الأفولُ...

الإلهيَّ فيهِ لا يمكِنُ أن يكتَفِيَ بالمُجَرَّدِ، فانصَبَّ في قالَبٍ يتَلَمَّسُ العالَمَ، واخترَقَ المُدُنَ، عَبْرَ الزَمَنِ، يبحثُ فيها عن نار المعرفةِ، لعلّهُ يجدُ ما يَروي ظَمَأهُ إلى تَلَمُّسِ الحقيقةِ...

وبهذا اعتَلى جَناحَي «مَفيستو»، فطارا بهِ عَبرَ العالمِ، مدينةً مدينةً، يتلَمَّسُ في كلٍّ منها الوَعيَ لعلّه يجدُ طريقًا ما إلى «الفردوسِ المَفقودِ»...

ولكنْ، أيَّ شيءٍ يستطيعُ هذا المعجونُ بالمادّةِ، وقد ارتبَطَ بالمَحدودِ، فنزَل من عَلياءَ؟

أيَّ شيءٍ يستطيعُ وقد انحَجَرَ في جَسَدٍ، فابتُلِيَ بالنسيانِ، وتقَلَّصَتْ كَثافَتُهُ الكونيَّةُ لتُلائِمَ حفنةَ الطينِ التي تدخُلُ فيها وترتديها مدى حَياةٍ...؟!

هامش:

وحَدَثَ لَمّا ابتدأ الناسُ يكثرون على الأرض أنَّ أبناءَ اللهِ رأوا بناتِ الناسِ أنّهنّ حَسَناتٌ، فاتّخذوا لأنفسهم نِساءً من كلٍّ ما اختاروا... وبعد ذلك أيضا دخلَ بنو اللهِ على بَناتِ الناسِ ووَلَدْنَ لهم أولادًا. هؤلاءِ همُ الجبابرةُ الذين منذ الدهر ذَوو اسمٍ.

(العهد العتيق)

هامش:

فقال الربُّ: لا يَدينُ روحي في الإنسانِ إلى الأبد، لزَيَغانِهِ وهوَ بشرٌ.

(العهد العتيق)

١٨ ـ صوت:
مُدُنٌ... مُدُنْ...
لا شيءَ إلا الليلَ
في قلبِ المُدُنْ...

١٩ ـ صوت:
نسيَ الأثيرَ
وقد تقمّصَ في جَسَدْ
ما كانَ من طَبْعِ الأثيرِ،
ولفَّ عَينيهِ الحَسَدْ.

ـ ٤ ـ

واستَشاطَ بهِ الجَبَروتُ، فمَدَّ يدَهُ إلى الأرض، وذَوَّبَ المَعادِنَ والذهَب، وصاغَ عِجلاً إلهًا يعبُدُه دونَ اللهِ، وكانَ موسى على الطُورِ يَبذُلُ نَفسَهُ كَفّارةً عن ذنوبِ الجَهلِ، وتَبديدًا لضلالةٍ عَمياءَ...

وإمّا أتِمَّتْ له الوَصايا، وحَفَرَ لِسانُ نار من السِمْتِ قلبَ الصَخْر، ونَقَشَ عليهِ كلمةَ الربِّ، انحَدَرَ فرآهُ غارقًا في الغَيِّ، عَمِهًا، مَطموسَ البَصيرَةِ: لا يرى العاتي إلاّ عُتُوَّهُ، ولا يرى ساكنُ الكَهْفِ إلا ظِلالَ الكهف!

هكذا، كسَرَ صَلَفُهُ لوحَ الوصايا،

وردَّ كلامَ الربِّ هَباءً مَنثورًا...

وكانَ أن خرجَ من كهفهِ يقصدُ «أرضَ المَعادِ»...

هامش:
ثمَّ اتّخذوا العِجلَ من بعدِ ما جاءتهم البيِّنات...
(قرآن كريم)

هامش:
ولما رأى الشعبُ أنّ موسى أبطأ في النزولِ من الجبلِ اجتَمَعَ الشعبُ على هَرونَ وقالوا له: قُمِ اصنَعْ لنا آلِهةً تسيرُ أمامَنا... فنزَعَ الشعبُ أقراطَ الذهبِ التي في آذانِهم وأتوا بها إلى هَرونَ؛ فأخذ ذلكَ من أيديهم، وصَوَّرَه بالإزميل، وصَنَعَه عِجلاً مَسبوكًا.
(العهد العتيق)

٢٠ ـ صوت:
«الكَهفُ» يَتلِعُ «الوصايا»
والشهادةُ لا تَقومُ:
بشرٌ تَمُدُّ وجوهَها قِرْدًا
وتجثو تحتَ نصْبٍ
من جبالِ المالِ/ دنيا
لا تُصَلّي إنْ دَعا صوتُ الإلهِ
ولا تَصومُ.

٢١ ـ صوت:
بشرٌ تَكَوَّمَ قلبُها قَشًّا
تَرُدُّ التيهَ دَيّانًا يلومُ،
والأفقُ وجهٌ واجِمٌ
نَظَراتُهُ ريحٌ سَمومُ...

بيدَ أنّ الصحراءَ غَمَرَتْهُ بالرملِ، فغابَ في السَرابِ، وتَبَدَّدَ طَيفَ آلٍ...

ولمّا انشَقَّ البحرُ، رَدَّ عليهِ الصدى، وهو في مراكِبِ فِرعونَ، فأزالَه عن وَجهِ البَسيطَةِ غَمْرًا مَنْسِيًّا، وذُهولاً ليسَت تَعقُبُهُ يَقَظَةٌ...

تلكَ شَريعةُ الماءِ التي خالَفَ
مرّةً بعدَ مرّةٍ ـ
شريعةُ ما جاءَ منهُ النورُ والظلامُ.
تلكَ شَريعةُ الرحِمِ،
حيثُ كُوِّنَ كُلُّ شيءٍ،
وحيثُ مُنتَهى كلِّ شيءٍ.

هامش:
فانصرف موسى، ونزلَ عن الجبل، ولَوحا الشهادةِ في يدِه. لوحانِ مكتوبانِ على جانبيهما. من هُنا ومِن هناكَ كانا مَكتوبَين. واللوحانِ هما صَنعةُ اللهِ، والكتابةُ كتابةُ اللهِ مَنقوشَةٌ على اللوحَين...
(العهد العتيق)

هامش:
فدفع الربُّ المِصريينَ في وسَط البحر، فرجع الماءُ، وغَطّى مركباتِ وفرسانَ جميعِ جيشِ فرعَونَ الذي دخل وراءَهم في البحر...
(العهد العتيق)

٢٢ ـ صوت:
وعْيٌ يَتَشَظّى فوقَ الأرضْ،
والليلُ الفائرْ
يَنسَلُّ إلى إيقاعِ الرَّقْصْ!

٢٣ ـ صوت:
ردًى.. ردًى... ردًى...
الأرضُ غربةٌ طويلةٌ
والرملُ يملأ المَدى.
نمرُّ في جزيرةِ الضجيج،
ثُمَّ نَكْسِرُ الصدى.
ردًى... ردًى... ردى...

وكانَ نَشيدُ الموتِ أعلى من كلِّ نشيدٍ، فخَرَّ موسى قَتيلاً من غيرِ أن يطأ «أرضَ المَعادِ»، ولُفِّقَتِ الأمورُ، كأنّما العينُ التي ترى لا ترى...!

«أباركُ مُباركيكَ وألعَنُ لاعِنيكَ»/

صوتٌ تَجَسَّدَ في قِمّةِ السِمْتِ ليرى مَنْ لا يَرى...

«بالزيتِ أمسَحُ روحَكَ، وبالبَخور أطَهِّرُها، وإلى الترابِ تعودُ نفسُكَ بَدَنًا مُنحَلاً، بائدًا...

وبالزيتِ والبَخور أطَهِّرُ ما هو لي، ويَبقى الترابُ في الترابِ...»

وكانَ سِفْرٌ جديدٌ من أسفار «الكَلِمَةِ».

ـ ٥ ـ

ولمّا حَلَّ «الكلِمةُ» في جَسَدٍ، ورَصَّ التاريخَ في

هامش:
... فإنّكَ تنظرُ الأرضَ من قُبالَتِها، ولكنّكَ لا تدخُلُ إلى هناكَ إلى الأرضِ التي أنا أعطيها لبَني إسرائيل.

(العهد العتيق)

٢٤ ـ صوت:
تنزلُ «الشمسُ» من بُرْجِها
السَرمَدِيِّ
إلَينا،
وتلثُمُ منّا الصِغارَ الضِعافْ.
تَجمَعُ الزَمَنَ الهَشَّ في عُلْبَةٍ،
ثمَّ تُبحِرُ في العُمْرِ،
بينَ الضِفافْ...

٢٥ ـ صوت:
تنزلُ «الشمسُ» من بُرجِها
السَرمَدِيِّ
إلينا،
وتَسكُنُ في جَسَدٍ،
في «حَمَلْ».
كلُّ جُرحٍ تَراءى لهُ واندَمَلْ...

لحظةِ التَجلّي، وكانَتْ أحدوثةُ أنِ انجَلى السرمَدِيُّ في الزمَنِ، والمُطلَقُ في حُدودِ الجَسَدِ، ظلَّ وَجهُ «فاوستَ» مُعَفَّرًا في ظلماتِ الكهفِ؛ ولم يشأ أن يرى في معجزةِ التَجلّي إلا الرياءَ الذي غَمَرَ قلبَه ورَدَّهُ عَضَلاً أجوَفَ ينبضُ بلا نَفَسٍ، وجَسَدَهُ فأحالَهُ نصبًا مُقَدَّدًا من لحمٍ وَدَمٍ...

وحينَ قدَّمَ «الكلمةُ» أعظمَ ذبيحةٍ في التاريخِ أصاخَ «فاوستُ»، فلم يسمَعْ إلا جَلَبَةَ الجَهْلِ في أذُنيهِ، وضَوضاءَ النِفاقِ الذي يعتَصِمُ بهِ...

وانقَضَّ في عُنفٍ هَمَجيٍّ يحُزُّ جَسَدَ «الكلمةِ» بالسِياطِ، ويغرسُ الشوكَ في رأسِهِ عِبرةً لمَنِ اعتَبَرَ...

ثم كانَتْ دربُ الجُلْجُلَةِ حيثُ ارتَفَعَ الصليبُ، واكتَمَلَ عليهِ تَفَتُّحُ «الوردَةِ»، وأشرَقَ النورُ مِنْ عَلُ، فاهتَزَّتِ السمواتُ والحُجُبُ، وانخَلَعَ بابُ العالمِ الهَزيلِ أمامَ ترانيمِ الأعالي المُشَرَّعَةِ...

هامش:
إذْ قالتِ الملائكةُ: يا مَريَمُ، إنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بكلمةٍ منهُ اسمُهُ المَسيحُ عيسى ابنُ مريمَ وَجيهًا في الدنيا والآخرةِ.
(قرآن كريم)

هامش:
إذ قالَ اللهُ: يا عيسى، إنّي مُتَوَفّيكَ ورافِعُكَ إليَّ، ومُطَهِّرُكَ من الذينَ كَفَروا، وجاعِلُ الذينَ اتَّبَعوكَ فوقَ الذينَ كفروا إلى يومِ القيامةِ.
(قرآن كريم)

٢٦ ـ صوت:

ركعَ النورُ على رجليه
يَلقاهُ حَيّا.
هَدْهَدَ الآبادَ في هدأتِه،
واغتَسَلَتْ في نور عَينَيهِ الثُرَيّا.
مَسَحَ التيهَ،
وردَّ «الشَمسَ» عُقودَ بَخورْ
وطريقًا سَرْمَديًا
يَعبرُ «الفردوسَ»/ وَحيٌ
أزهَرَ الأرضَ وغَطَّتْهُ العصورْ،
فجَّرَ النورَ على الدنيا سَخيّا.

وإذا الملائكةُ، جيئةً وذَهابًا، على حَبْلِ التَواصُلِ المَفتوحِ: سَديمُ المعرفةِ التي احتَوَتْ كلَّ شيءٍ، واستَقَرَّتْ شراراتُها في عُمقِ الأعماقِ تزرَعُ روحَ «الكلمةِ» داخلَ جدرانِ الجَسَدِ...

وتَصَدَّعَتْ أنصابُ النور في دَياجيرِ الجَهْلِ. وكانَ أنِ انطَوى عَهْدٌ ليبدأ عَهْدٌ...

لكنَّ المدى اكتَظَّ بنفسِهِ، وتقلَّصَ على نفسِهِ، إلا شَراراتٍ هنا وهناكَ تغَلْغَلَ فيها صدى «الكلمةِ»، فانفجَرَتْ في أعماقِها ينابيعُ نور، وأهازيجُ ملائكة، وكانت رؤيا؛ وكانت دربٌ...

أيكونُ لِـ«فاوستَ»، في هذه المحطَّةِ الكَوكَبيَّةِ، بابٌ للتجَلّي؟ أيكونُ له انعِطافٌ نحوَ آفاقِهِ المُضيئةِ فَيَشْتَفَّ مِنها لُمَعَ الطريقِ، وتبدأ انكِشافاتُ الحُجُبِ السوداءِ من عينِهِ المَستورةِ الثالثةِ؟

هامش:

وتُبرِئُ الأكْمَهَ والأبرَصَ بإذْني، و... تُخرجُ الموتى بإذْني... فقالَ الذينَ كفروا منهم: إنْ هذا إلا سِحرٌ مُبين.

(قرآن كريم)

٢٧ ـ صوت:

عَبَرَ الجُلجُلَهْ
نحوَ دائرةٍ في أثيرِ الفضاءْ،
وروى بِبَخورِ الضِياءْ
شَمسَنا الآفِلَهْ...

٢٨ ـ صوت:

مَرَّ شرارٌ
أحرقَ الليلَ وغابْ.
وظَلَّتِ الأحلامُ في المَدى
كسيرةً،
وظَلَّتِ الدموعُ في انسيابْ.

تُرى
تُفتَحُ الورودُ في مَغاور الخَرابْ؟

هُنَيهَةٌ، ثمَّ عِبارةُ التَلَقُّنِ تَلوحُ.
هُنَيهَةٌ، ثمَّ صمتٌ كالمدى... الأبيضِ،
ولكنّه موغِلٌ... موغِلٌ في الليلِ...

ـ ٦ ـ

وإذا بهِ، في مَهْمَهِ المَصانعِ والتِجارةِ، يمتَطي الحديدَ والبارودَ، ويكسِرُ أقفالَ المادَّةَ، ويصنعُ من قلبِ الطبيعةِ أسوارًا وبنادِقَ. ثمَّ يَركَبُ الحِكمةَ السوداءَ في صَهيلِ الليلِ، ويمتشِقُ سَهمًا يُطلِقُهُ نحو السماءِ: بابلُ الجديدةُ قامَتْ تُطِلُّ بقامَتِها المَديدةِ، وأروُسُها الكثيرةُ الناتئَةُ تشقُّ بألسِنَتِها قلبَ الأرضِ، لتُرَوِّضَ الحديدَ والفولاذَ، وترفعَ رايات الجَبَروتِ عاليًا، على رؤوسِ الأشهادِ.

هامش:

ليسَ الموتُ من صُنعِ اللهِ، ولا هَلاكُ الأحياءِ يَسُرُّه؛ لأنّه إنّما خَلَقَ الجميعَ للبقاءِ، فمَواليدُ هذا العالمِ إنّما كُوِّنَتْ مُعافاةً، وليسَ فيها سُمٌّ مُهْلِكٌ، ولا ولايةَ للجحيمِ على الأرضِ. لكنَّ المُنافقينَ همُ استَدعوا الموتَ...

(العهد العتيق)

٢٩ ـ صوت:
بشرٌ يمرّونَ كالذُباب
في عَصرٍ لَزِجٍ
مَختومٍ بالشَمعِ الأحمرِ.
بشرٌ يَتَساقَطونَ كأوراقِ الخَريفِ
على أديمٍ جافٍّ
وبحارٍ من رَمْلٍ...

٣٠ ـ صوت:
نظَرْتُ إلى ذاتي من خَلَلِ الدخانِ
فلمْ أرَ
إلا ضبابًا يَتَبَدَّدُ
على وجهِ الأرضِ...

«جيلٌ يمضي وجيلٌ يأتي»، والقلبُ فَحمةٌ في حَطَبِ الجَسَدِ. «جيلٌ يمضي وجيلٌ يأتي»، والعَينُ يَستُرُها البُرقُعُ الرهيبُ، والمَدى بابٌ يَسُدُّهُ التيْهُ والضبابُ...

«جيلٌ يمضي وجيلٌ يأتي»،
والأفقُ رايةٌ سوداءُ لا شيءَ فيها إلا الفراغَ...!
«جيلٌ يمضي...»
والآتي محطّةٌ من الصقيعِ
لا يُدفِئُها إلا تَفَتُّحُ «الوردةِ» في قلبِ الخَشَبِ المُهْتَرِئ...!
أوّاهْ!
«لا شيءَ جديدٌ تحتَ الشمسِ»!

وحينَ ضاقَت بهِ الرؤيا، عَتا، فاستَبَدَّ بالمادّة، وشَطَرَ

هامش:
رأيتُ جميعَ الأعمالِ التي عُمِلَت تحتَ الشمسِ، فإذا الكُلُّ باطلٌ وكآبةُ الروحِ.
(العهد العتيق)

هامش:
ورأى الربُّ أنّ شرّ الإنسانِ قد كَثُرَ في الأرض، وأنّ تَصَوُّرَ أفكارِ قلبِهِ إنّما هو شرّيرٌ كلَّ يومٍ.
(العهد العتيق)

٣١ ـ صوت:

رؤيا
تتكسَّرُ
فوقَ
جبالِ
الوَهْمِ،
ورؤيا
تخرجُ منها أحصِنَةٌ
بجَناحَين وقَرنَين
وتَلتَهمُ الناسَ،
تَدوسُ بحافِرِها الأمْسْ...
رؤيا تخرجُ من عينِ الأرضِ
وتفتحُ فيها أرماسًا للشمسْ!

الذرَّةَ لتصيرَ وَحشًا يمتصُّ الجهاتِ كلَّها، ويردُّها رمادًا يَمورُ فيهِ الردى... ونَبَتَ في هيروشيما فِطْرُ الرؤيا، حيثُ لم تُطلِعِ الأرضُ إلا جماجمَ الموتى، والعُيونَ مَسمولَةً، والأجسادَ ذائبةً في حمَمِ الموتِ.

وكانَ الظلامُ يَرونُ فوقَ كلِّ شيءٍ، فلا الحِكمةُ حِكمةٌ، ولا النورُ نورٌ...

«جيلٌ يمضي وجيلٌ يأتي» والبرجُ سامِقٌ يضربُ في وجهِ السماءِ، حالِكٌ كما عَويلُ الظُلْمِ يَنبتُ من قلبِ البَحْرِ.

رأيتُ الكُلَّ في مَهْمَهِ السُلطانِ كاللجّةِ يمتَصُّها اليَمُّ، ثمَّ يُلاشيها كأنّها لم تَكنْ. «رأيتُ جميعَ الأعمالِ التي عُمِلَتْ تحتَ الشمسِ، فإذا الكلُّ باطِلٌ وقَبضُ الريحِ...»

عَتا، ثمَّ استَبَدَّ بالرؤيا،

عَتا، ولم يجدْ من الحِكمةِ

هامش:

يوجَدُ شرٌّ قد رأيتُهُ تحتَ الشمسِ، وهو كثيرٌ بين الناسِ.
(العهد العتيق)

سِوى ظِلٍّ أسودَ يَثقُبُ الروحَ
وينجذِرُ في قرارةِ ذاتِهِ
ليصيرَ أدغالاً من البَطشِ والضياعِ،
أو أجيالاً تنمو تحتَ الشمسِ
يتكوَّمُ فيها الدَيجورُ والفَشَلُ،
فلا الشمسُ تطلعُ عليها من عينِ الفجرِ، ولا الزمنُ يدورُ،
ولا الجسَدُ يَنشَقُّ عن نور من داخِلِ...
«أوّاهْ!
لا شيءَ جديدٌ تحتَ الشمسِ!»

- ٧ -

ما أصعبَ الرحلةَ! ما أطوَلَ الطريقَ...! ما أبعدَ النورَ عن هذا الكوكبِ المُصَدَّعِ!

٣٢ ـ صوت:

أرضٌ تَنبَحُ في ظَلْماءِ الرؤيا،
تَتناسَلُ عَمياءَ على زمنٍ أعمى/
أرضٌ تنبتُ كالفِطْرِ،
تَتقَمَّصُ جسْمَ الليلِ
ووجهَ الليلِ
وتَطْمُسُ صَرْحَ الفَجْرِ...!

هامش:

ثـمَّ الـتَـفـتُ لأنـظُـرَ الـحـكـمـةَ والـحَـمـاقـةَ والـجَـهْـلَ... فرأيتُ أنَّ للحكمةِ مَنفعَةً أكثرَ من الجَهلِ، كما للنورِ منفعةً أكثرَ من الظُّلْمَةِ.

(العهد العتيق)

٣٣ ـ صوت:

لا شيءَ سوى الليلِ المفتوحْ.
لا شيءَ بهذا الدربِ المَمدودِ
سوى جسدٍ
يَنهَبُهُ الزمنُ المَمسوحْ.
لا شَيءَ سوى التيهِ
يُقيمُ بهذا الجرحِ المَفتوحْ.

«رأيتُ جميعَ الأعمالِ التي عُمِلَتْ تحتَ الشمسِ، فإذا الكُلُّ باطِلٌ وقَبْضُ الريحِ...» رأيتُ البُرْجَ يعلو ليقبضَ على عُنُقِ السماءِ، لكنَّ قَبضَتَه لا تُطبقُ إلا على هَباءٍ...رأيتُ البرجَ يَزهو بالمَعرفةِ، ولكنَّ مَعرفتَه تتكشَّفُ له عن خَواءٍ، وعلْمَه يَنزاحُ عن دُجُنَّةٍ أينَ مِنها ظُلُماتُ الكَهفِ...؟ أمّا الحكمةُ فتُعَلَّقُ مَقلوبةً، كالخفّاشِ، عندَ سَقفِ هذا العالَمِ المُسْتَنْقعِ.

«باطِلُ الأباطيلِ»، كلُّ شيءٍ هنا باطِلٌ: الليلُ والنهارُ، الظلامُ والنورُ، الجَهلُ والمعرفةُ، الموتُ والحياةُ... باطِلٌ، باطِلٌ...

بحثتُ عن المعرفةِ داخلَ هذا الجَسَدِ المُصَدَّعِ، فلم أجدْ إلا ذاتي تتبدَّدُ طَيفَ آلٍ، ورؤيايَ تنحَلُّ رؤيةً مُصَفَّحَةً، محصورةً بينَ جَهاتٍ أربعَ، وزمنٍ ينسَلُّ مِن بينَ أصابعي كالرمل.

هامش:

وكيفَ يموتُ الحَكيمُ كالجاهِلِ؟

(العهد العتيق)

هامش:

ورأى الربُّ أنَّ شَرَّ الإنسانِ قد كثر في الأرض، وأنَّ تَصَوُّرَ أفكار قلبِه إنّما هو شرّيرٌ كلَّ يومٍ.

(العهد العتيق)

٣٤ ـ صوت:
ألوَعيُ الأبيضُ شمسٌ
تسطَعُ في فردوسِ القلْبْ.

٣٥ ـ صوت:
ألوَعيُ الأبيضُ ادغالٌ،
ووعولٌ تَتدافَعُ في وَعْرٍ
ونُضيءُ الدرْبْ...

٣٦ ـ صوت:
ألوَعيُ الأبيضُ
مِعراجُ الربْ...

بحثتُ عني في هذا العالم، فلم أجد إلا ظِلّي وقد وَشَّحَهُ البُطلانُ، والتَمَّ حولَ نفسِهِ كالأفعى، يَنعى المَصيرَ الذي آلَ إليه...

«باطِلُ الأباطيلِ»، كلُّ شيءٍ هنا باطِل...

رأيتُ الخرافاتِ تطلعُ من كلِّ الجهاتِ، وأحصنةَ الصدى تذرعُ السماءَ والأرضَ، جيئةً وذَهابًا، نكِرَةً مَنفيَّة على وجهِ البَسيطَةِ المُدَمّاة.

رأيتُ الأنبياءَ رايةً مُمَزَّقَةً، وكلامَهُم يابسًا كحَبّاتِ الرملِ في آذانٍ لا تَسْمَعُ، وعُيونٍ لا تَرى، وقلوبٍ صَمّاءَ كالحَديد...

رأيتُ الوَعيَ نارًا تُحرقُ ما تَبني، والمؤسَّسَةَ تمثالاً مَرمَريًّا لا نَبْضَ فيه، ولا حَياةَ... رأيتُ الجهاتِ تُطبقُ على نفسِها، فإذا النورُ المَنشودُ رحلةٌ في الضَياعِ، والخطوُ تَيهٌ يَتَبَدَّدُ في الصحراءِ...

* * * * * * * * * *

هامش:
ما كانَ قبلاً فهو الآنَ وما سيكونُ كانَ قبلاً. يُعيدُ اللهُ ما مضى.
(العهد العتيق)

هامش:
فاذكرْ كيفَ سمِعتَ وحفِظْتَ، واحفَظْ وتُبْ.
(رؤيا يوحنّا)

٣٧ ـ صوت:
لا شيءَ إلا فيكَ يا آدَمُ!
تقرأ حُلمَ الأرضْ.
تفتَحُ بابَ الرفضْ...
لا شيءَ إلا فيكَ يا آدَمْ!

٣٨ ـ صوت:
القلبُ مَعجونٌ بنارِ الأثير،
والعينُ أفقٌ مفتوح/
لا شيءَ إلا الصفاء...

٣٩ ـ صوت:
«الوردةُ» تفتّحت وامتصّتِ
الجهات:
لا جهاتٌ/ لا زمان.
كلُّ شيء فيَّ: الداخلُ والخارجُ
والكونُ سريرٌ مُهيّأ...

وإذا امرأةٌ تَخرجُ إليَّ مِن جِلدِي، بَيضاءَ كالهالَةِ الصافيةِ، جسدها من أثير، وصوتُها كتَرنيمِ الملائكةِ احتَفَظَتْ بإشراقِ وجهِ اللهِ. كانت «راهِبتي المَنسيّةَ»، أو كالصوتِ الرائعِ المُنخَطِف من «الفردوسِ المفقودِ»... لم تَنبِسْ بكلمة؛ ومعَ ذلكَ قالت لي: «ألَستَ تَنشُدَ الضوءَ المنبثقَ من أعماقِكَ، فلماذا تبحثُ عنهُ في أرض الليلِ؟»

كان كلامُها كالرعدِ، ومعَ ذلكَ فهو صامِت. وكنتُ أنظرُ أمامي، كأنَّ شيئًا ما يخطِفُني إلى حيثُ لم أفكِّرْ في الارتِيادِ: رأيتُ العصورَ كلَّها تَسقطُ أمامي جافَّةً كوَرَقِ اليَبَس، والزمانَ يتَكَوَّمُ كالسنابلِ اليابسةِ. وكانَ كلُّ ما يصطدمُ بي يَنهارُ على الطريقِ...

انكَشَفَتْ لي حقيقةُ الدُهور، فكنتُ أنا حقيقةَ الحقائق. انجلَتْ لي كلُّ الصدَفِ، وكنتُ أنا ما وراءَ الصِدْفةِ. تَبَيَّنْتُ

هامش:
أنا هو الألف والياء الأول والآخر.
(رؤيا يوحنا)

معنى الأعمار والأزمنةِ، وكنتُ أنا المعنى الأعمقَ. تعرَّفتُ إلى رحلة التاريخ والتجربة، فكنتُ أنا غايةَ تلكَ الرحلة.

تعَرَّيتُ من أقنِعَتي/ رميتُ ملابسي/ خرجتُ من جِلدِيَ القديمَ/ استفقت/ احترَقتُ/ انعجَنْت/ اهتَزَزْتُ كالقَصَبَةِ في الريح، هبَبتُ معَها/ امتزَجتُ بالترابِ/ نبَتَتْ فيَّ الأشجارُ والسَنابلُ، وتَدَفَّقَتِ الينابيعُ.

تَماوَجتُ معَ الماء/ انغَسَلَتْ بيَ الأرضُ والنفوسُ/ اشتَعَلْتُ مع النار، في النار/ صرتُ النارَ/ صرتُ القَبَسَ المهتَزَّ في قلبِ النار.

أنا الأسفَلُ. أنا العُلى. أنا الشرقُ والغربُ والجهاتُ. أنا البدءُ والنهاية وقُدسُ الأقداسُ. كلُّ شيءٍ بي، وكلُّ شيء منّي/ تعرّيتُ من أقنعَتي، من عَينَيّ: صارَت لي عَينٌ أخرى/ صارت لي ذاتٌ أخرى/ صرتُ أرى من أعماقي ما هو أبعدُ من الأعماقِ، ما هو أعمقُ من الأعماقِ...

٤٠ ـ صوت:

الحكمةُ أن تعودَ إلى داخلكَ
كما يعودُ الجنينُ إلى الرحِم،
كما يعودُ النهرُ إلى «البحر العظيم».
الحكمةُ أن تقرأ داخِلَك
حرفًا حرفًا
لتَرِثَ النارَ الكوكَبِيَّة.

هامش:

كنَ أمينًا إلى الموت، فسأعطيكَ إكليلَ الحياةِ.

(رؤيا يوحنا)

٤١ ـ صوت:
منهُ وإليه.
من الكلّ إلى الكُلّ.
عدتُ إلى ذاتي في مهرَجانِ الضوءِ
أعمقَ من الضوء/
أتَعانَقُ/ أنكوكَبُ/ أتوَحّدُ/
هَلّلويا:
هُوَذا الفردوسُ من جديد،
هيَ ذي أورشَليمُ الجديدةُ...

لم يعد فيَّ سِوايَ...
كحقلٍ من البَخورِ يَتَصاعَدُ إلى عَلُ،
كابيضاضِ الأثيرِ في جسدِ الأثير،
ولا جسَد...!
كسُلَّمِ «الوثائِقِ الكَونيَّةِ» هو يَلْتَمُّ وثيقةً واحدةً في «الضمير الكونيِّ»...

* * * * * * * * * *

«باطِلُ الأباطيلِ»، كلُّ شيءٍ باطِلٌ إلاّيَ.
أيُّ نور في الخارجِ إلا الجَهلُ المعشِّشُ بينَ صخور الظلام؟ باطِلٌ باطِلٌ... كلُّ ما في الخارجِ دخانُ ظِلالٍ... كلُّ شيءٍ باطِلٌ إلاّيَ/ إلاّكِ، أيَّتُها «الراهِبَةُ المَنسيَّةُ».
عدتُ إلى ذاتي في مهرجانِ الضوءِ والحُبور، مَعجونًا بالنور، منجذِرًا في الفرحِ الكَونيِّ؛ وفي وَليمةِ الغِبطَةِ الأعمَقِ، كنتُ أسلُكُ مِعراجَ «أورشَليمَ الجديدةِ» نحو «الفردوسِ المُستَعاد»...

هامش:
فإنّ اللهَ خلقَ الإنسانَ خالِدًا، وصَنَعَه على صورةِ ذاتِه.
(العهد العتيق)

١ ـ صوت:
بلا حُجُبٍ
تكشفُ الذاتُ أعماقَها:
عَرِيَ الضوءُ عن ضوئِهِ
وانجلى الوَعْيُ في بابِها.

٢ ـ صوت:
كلُّ شيءٍ تراتيمُ في سُلَّمِ الصوتِ،
كلُّ المدى مُستَضاءْ ـ
عَبَقٌ من بَخورِ الضياءْ.

الفصل الثالث:
العودة إلى الذات

ـ ١ ـ

هـهـنـا، تنزاحُ الحُجُبُ بيني وبينَ ذاتي، فتنشَقُّ بَراقِعُ الرؤيا، ويَنسكِبُ علَيَّ النورُ مِن عَلُ.

ههنا، في مَهرجانِ السَكينةِ التامّةِ، تزولُ الستائرُ بيني وبينَ الذي هوَ، فتتعالى أناشيدُ الغبطة، وتعودُ إليَّ نِعمةُ الفردوس.

هـهـنـا، في يَنبوعِ الكلماتِ البكرِ، أقفُ عاريًا أمام «الحَمَل»، وأرتَفِعُ كلِسانِ النار نحو النِعمةِ الكُلّيّةِ.

ههنا، تستغرقُ ذاتي في الطوبى، وتتمتَّعُ أذني بأناشيدِ الصَمْتِ والفرحِ، ويغرقُ أنفي في أرَجِ البَخور... سُبحاني، سُبحاني!

هامش:
طوبى للذينَ يصنعونَ وَصاياهُ لكي يكونَ سُلطانُهم على شجرة الحياةِ ويدخلوا من الأبوابِ إلى المدينة.

(رؤيا يوحنا)

سُبحانَكَ فيَّ وأنا فيكَ؛ سُبحانَ هذا التألُّقَ يفتحُ الحَواسَّ الصافيةَ على ما وراءَ الحَواسِّ...

إيّاكَ أرى في هذا الهدوء الأبيضِ.

إيّاكَ أسمَعُ في هذا الصمتِ التامِّ.

إيّاكَ أشتَمُّ في غِيابِ الرائحةِ والعُطور.

أيُّها الليلُ والنهارُ، المَلاءُ والخَواءُ، الأرضُ والسماءُ.

أيُّها الخارجُ منّي، العائدُ إليَّ، باركْ فيَّ هَيكَلَ الروحِ هذا، وَلْيَكُنِ النورُ.

«نورٌ على نور»...

نورٌ في التِفافِ الرؤيا على البصيرةِ،

نورٌ في عُمْقِ الأعماقِ طالعٌ من سَريرةِ العالَم نحوَ ضَميرِ الأرضِ.

«نورٌ على نور».

٣ ـ صوت:

في الصمت،

في رائحةِ الضياءِ والبَخورْ

تَمشي إليهِ الذاتُ،

تَستَديرْ؛

وفي أهازيجِ البَياضِ والدُهورْ

تمتلئُ الأشياءُ بالعَبيرْ.

٤ ـ صوت:

لا شيءَ إلا منهُ خارجًا وعائدًا ـ

لا شيءَ إلا رحلةُ الضميرْ.

هامش:

إنّ النورَ قد جاء إلى العالم، وأحبَّ الناسُ الظلمةَ أكثرَ من النور لأنّ أعمالهم كانت شرّيرة.

(رؤيا يوحنا)

هامش:

وفاعِلُ الحقِّ يُقبلُ إلى النور، كي تَظهرَ أعمالُه، لأنّها في اللهِ قد عُمِلَتْ.

(إنجيل يوحنا)

٥ ـ صوت:
أذكُرُ أنّي كنتُ نقطةً من نورْ
على جبينِ عالَمٍ مَستورْ.
أذكُرُ لَونَ الصوتْ.
أذكُرُ مَوتَ المَوتْ ـ
كأنّني غفَوتْ
برحلةٍ أتْمَمْتُها
أسْترجعتْ فيها النورْ.

٦ ـ صوت:
أذكُرُ أنّي كنتُ عاصِفًا
لكنّهُ يَكتَشِفُ الدهورَ بالدهورْ.

يُهدى إلى النور مَن لمْ يَحجبْ يَنبوعَ نوره ظلامُ أرضٍ، ولا دُجُنّةُ ترابٍ.

سُبحانَكَ، نورَ السمواتِ والأرضِ، تفيضُ منكَ عليكَ، ليستفيقَ الهاجِعُ في أعماقِنا، ويَخطِفَنا إليكَ. سُبحاني...!

ـ ٢ ـ

هنا، في صَومَعتي الهائلةُ، تُشرقُ المعرفةُ، ويُستَعادُ الوعيُ الضائعُ...

كلُّ شيءٍ في داخِلي يُضيءُ.

كلُّ ما في الخارجِ باطِلٌ.

هنا، في هذه الصومعةِ العظيمةِ، يَنبضُ بالنور كلُّ شيءٍ، ويُستَعادُ ما نُسِيَ في غبار الخارجِ وضوضائِه.

كلُّ شِلوٍ من أشلائي يَبْرقُ ويرتجف،

كلُّ ذَرّةٍ من كِياني،

هامش:
اللهُ نورُ السمواتِ والأرض.
(قرآن كريم)

هامش:
إنّما أعلَمُ شيئًا واحدًا: كنتُ أعمى والآنَ أبصرُ.
(إنجيل يوحنا)

هامش:
الذي يأتي من فوقُ هو فوقَ الجميع.
(إنجيل يوحنا)

٧ ـ صوت:

هل تصيرُ المعرفةُ
نَسْمًا أسودَ يرتَدُّ على
هَولِ البقاءْ
في مدًى أعمى
تلاشى من ثَناياهُ الضياءُ،
حيثُ يَعْوي الليلُ
في جَهلِ الأماني المُدنِفَهْ؟

هل تصيرُ المعرفةُ
سُلَّمًا يَرقى بنا
بينَ غاباتِ الأغاني الوارِفَهْ
عبرَ مِعراجِ السَناءْ؟

كلُّ ما حَولي...

أفلَتُّ يَدَكَ فادلَهَمَّتِ الظلمةُ في عينيّ، وركبتُ مَطيّةَ المعرفةِ العَمياءِ، فطارَت بي إلى قرارةِ جَهَنّمَ، وأنكَرْتُ الرؤيا. هكذا صِرتُ قسمَين: واحدًا أبيضَ تَمخُرُهُ جراحُ الحَسرةِ على ما فاتَ، وواحدًا أسوَدَ يَعتو فتثقبُ يدُهُ جبهةَ الفضاءِ، ويشرئبُّ ممتلئًا بذاتِه الفارغة، تَقْبض نفسُهُ الصمّاءُ على الفراغِ واليَبابِ. وإمّا عادَ إلى نفسِه من تُرّهاتِ الضياعِ والباطِلِ زَها وعَتا، حتى أضاعَ ما كانَ فيهِ منكَ، وانحَجَبَ عن عَينيهِ النورُ، واستَتَرَ هوَ في دَياجيرِ المَذاهِبِ والشِقاقِ...

أفلَتُّ يدَكَ فتَشَظَّتْ ذاتي، وانشَعَبَتْ، عَمياءَ، في مَعاريجِ الدنيا، تَصطادُ العُقمَ المُقنَّعَ، في أعتى وليمةٍ للجهلِ والظَلْماءِ.

هامش:

ما أضيقَ البابَ وأكرَبَ الطريقَ الذي يؤدّي إلى الحياة! وقليلونَ هم الذين يجدونه.

(إنجيل متى)

هامش:

فيهِ كانتِ الحياةُ، والحياةُ كانت نورَ الناس؛ والنورُ يُضيءُ في الظُلمةِ، والظلمةُ لم تُدركْهُ.

(إنجيل يوحنا)

٨ ـ صوت:
وَجهُكَ المُشرقُ بابٌ للضياءْ
يَنزلُ الأفقُ إليهِ،
ويُراقُ الطُهْرُ ما بينَ يَدَيهِ،
يكشفُ الأشياءْ
في عُرسِ البهاءْ...

٩ ـ صوت:
وجهُكَ المُشرقُ عيدٌ للتجلّي
في شِعابِ الكَونِ
إنْ ضَلَّ مُريدْ،
يُحرقُ الظُلْمَةَ فينا فنُصَلّي
لإلهٍ في ثنايانا أبيدْ...

وعندما عُدتُ إليكَ من جديدٍ، وأمسَكتُ بيدِكَ، أضاءَت روحي، وعادَ إليَّ ربيعُ الالتِئامِ، وانكَشَفَت ليَ الحُجُبُ، فأيقنتُ أنَّ كلَّ شيءٍ في ذاتي، وأنّني، ما لَمْ أمْسِكْ بيدِكَ فأطيرَ فيكَ، باطلٌ، وكلُّ شيءٍ باطِل...

يا إلهي، ويا مخلّصي!

ارتفعتُ إلى ذاتي من شقوقِ العالمِ المُصَدَّعِ، فوجَدتُكَ تملأ صومعتي الرهيبَةَ، ووجدتُكَ فيَّ ـ وجدْتُني فيكَ، حتى انقَشَعَتِ الظُلُماتُ عن الوَعي، وانفتَحَ الحَدْسُ على أروعِ وليمةٍ يُقيمُها «الكَونيُّ» في البشَر.

هكذا سَلَكتُ مِعراجَ الوَعي إلى فوقُ، وكانَ النورُ يَنهَلُّ عليَّ من عَلُ، حتى امتلأتُ بهِ، وصارَ كِياني، كلُّ كِياني، يَسْبَحُ في كِيانِكَ السرمَدِيِّ.

يا نورَ العالَمِ،

هامش:
الروحُ يُحيي؛ أمّا الجسدُ فلا يُفيد شيئًا.
(إنجيل يوحنا)

هامش:
أنا نورُ العالم. مَنْ يَتبَعْني فلا يمشي في الظلمةِ، بل يكونُ لهُ نورُ الحياة.
(إنجيل يوحنا)

١٠ ـ صوت:

ألذاتُ وعاءٌ
يَتَشكّلُ عبرَ الزمنِ
ألذاتُ ضميرُ التاريخِ وسَلْحَمَةُ
الأبديّة،
وأنا الشعْلَةُ
تجمَعُ أطرافَ الدنيا والكَفَنِ
عبرَ الدربِ النورانيّة.

الذاتُ وعاءٌ
يتشكّلُ عبرَ الزمنِ
في ترقيمِ النورْ،
تتصاعدُ فوقَ الدنيا والشَجَنِ،
وتطيرُ... كحَقلٍ بَخورْ...

ألذاتُ أثيرْ
يخرجُ ثُمَّ يعودُ
إلى قلبِ اللهِ الواحدِ كالسُفُنِ...

منكَ الطريقُ وإليكَ ـ
منّي الطريقُ وإليّ...

ـ ٣ ـ

«تَسَمَّرْتَ، يا «فاوستَ» في لحظةِ التجلّي، ثمّ خرجتَ من ذاتِكَ تبحثُ عن كِيانِك، فانسَحَقْتَ على صخورِ الواقعِ، وامتلأتْ ذاتُكَ باليأسِ والفراغِ...»

« ـ لكنني عدتُ إلى ذاتي، يا نسمةَ النور، فوَجَدتُني فيها، واكتَشَفتُ قَبَسَ المعرفةِ المنفتِحَةِ عليَّ من فوقُ، فأضاءَتْ كلَّ كِياني...»

« ـ رأيتَ ذاتَكَ في ذَواتِ الآخرين تَعتو على خرائبِ الحياة، وتُفجّرُ الحقَّ شَظايا في جَبَروتِ الباطِل. رأيتُها في دُجُنّةِ الآثامِ تَنصَدِعُ في فمِ العَبَث، فَتَتَسَرّبُ المرارةُ إلى طَعمِ الحياةِ، ويتّشِحُ الواقعُ بالهَولِ والفراغِ...»

هامش:

أتيتُ أنا إلى هذا العالَم حتى يُبصِرَ الذينَ لا يُبصِرون.

(إنجيل يوحنا)

هامش:

إن كانَ أحدٌ يمشي في النهار لا يَعثُرْ لأنهُ ينظرُ نورَ هذا العالم، ولكنْ إنْ كانَ أحدٌ يمشي في الليلِ يعثرْ لأنّ النورَ ليسَ فيه.

(إنجيل يوحنا)

١١ ـ صوت:
نمشي لِنُقنعَ ذاتَنا بالضوءِ
في تَرنيمِ أحلامٍ شَجيَّهْ،
نلدُ الحياةَ لُلهبَ الحَيواتِ نورًا
في قرارتِنا الغَنيَّهْ ـ
ربّاهُ!
ماذا تَنفَعُ الدنيا
إذا عَصَتِ الحياةُ على بصائرِنا
ولم تؤمِنْ بها كلُّ البَريَّهْ؟!

١٢ ـ صوت:
نمشي ونُقنعُ ذاتَنا ضوءًا،
ونؤمنُ بالحياةِ
سَخيَّةً فينا... سَخيَّهْ...

«ـ لكنّني أيقَنتُ، يا نَسمةَ النور، أنّنا بالحياةِ نُكمِلُ وجهَ الإلهِ في الإنسان، وأنَّ الواقعَ هَباءٌ مَنثورٌ، يهُبُّ نِثارًا فوقَ ذواتِنا، ولا يلبَثُ أنْ يَغيب. ونحنُ، في غَمرةِ رحيلنا الطويل، نُلَطِّفُ بالحياةِ صُدوعَ الواقعِ، ونُحَسِّنُ الحياةِ بأنشودةِ المحبّة.

أيقَنتُ أنّنا إنّما نحنُ هنا لنمرّ، وفي أثناءِ مرورنا نحمل معنا نكهَةَ الأشياءِ، ومعجزةَ الوعيِ، وروعةَ المعرفةِ، وبَهاءَ المحبّة.»

«ـ رحلْتَ في التاريخِ، فلم تجد في دروبهِ سوى البُطلانِ والدَياجير.»

«ـ لكنني تعلّمتُ أنّ المحبّةَ تَمسحُ الظُلمةَ عن وجهِ العالم، وتوقِظُ الإلهَ الغارقَ فينا، يُزَحزِحُ الصخرَ كلَّ يومٍ عنْ قبرهِ، لينتصرَ على الموت.»

هامش:
الذي يؤمن بالابنِ له حياة أبدية، والذي لا يؤمن بالابن لن يرى حياة.
(إنجيل يوحنا)

هامش:
ما دامَ لكم النورُ آمنوا بالنور لتصيروا أبناءَ النور.
(إنجيل يوحنا)

١٣ ـ صوت:
تفتح الأشياءُ في سَريرةِ المحبَّهْ
وتولَدُ النِعَمْ:
تنبتُ كلُ حبَّهْ
وتُشحَذُ الهِمَمْ...

١٤ ـ صوت:
تُحارِبُ الدَيجورَ في ضِيائها،
ونسحَقُ العَدَمْ.

« ـ شَفاكَ وَعيُكَ، يا «فاوستُ»، وحَمَّلَكَ في عودتِكَ زهورَ الواقعِ وريّا المعرفة. شَفاكَ وعيُكَ. آمَنْتَ بالحياةِ في روعةِ انبثاقِها، من «موسى» الذي أزهَرَ صوتُه الصحراءَ، إلى «داودَ» الذي غنّى طَمأنينَةَ البشارةِ، إلى «بوذا» الذي عاشَ في وَعيِ المتألِّمينَ والمَقهورينَ، إلى المسيحِ الذي التَهَبَتْ به المحبّةُ في زوايا الكونِ، ورفَعَ نفسَه أعظَمَ وليمةٍ للفداءِ في مَلَكوتِ اللهِ داخلَ الزمنِ، فانكَشَفَ بهِ سِمْتُ الوجودِ، وانجلَتِ «الوثائقُ الكونيّة» عن كلِّ الأسرار.

آمَنتَ بالحياةِ، يا «فاوستَ»، تَعَمَّدَ وَعيُكَ بها فَشَفِيتَ...»

ـ ٤ ـ

هكذا، في نورِ كلّيّتي المتوحِّدَةِ تَمّت لي أنشودةُ اليقين، وتغلّبتُ على «نرسيسَ».

هامش:
وصيّةً جديدةً أنا أعطيكم أن تُحبّوا بعضَكم بعضًا، كما أحببتُكم أنا تُحبّونَ بعضُكم بعضًا.
(إنجيل يوحنا)

هامش:
إنْ كان أحدٌ يحفظ كلامي فلن يرى الموتَ إلى الأبد.
(إنجيل يوحنا)

١٥ ـ صوت:
بكَ اهتَدَيتُ واحتَمَيتُ.
بكَ انتَشَيتُ ـ
وكانَ في خُطايَ
أنشودةٌ وفايَ،
وكلُّ ما احتَوَيتُ من مُنايَ.
بكَ اعتَصَمتُ واحتَمَيتُ.
بكَ اهتَدَيتُ...
بكَ اهتَدَيتُ...

١٦ ـ صوت:
يا قَبَسَ الحياةِ في كيانِنا
يُضيئُها بلا فَتيلَةٍ وزَيتُ...

كَشَطْتُ جِلْدَهُ عنّي، انتَزَعتُ عَينيهِ من عَينَي قلبي، وأخرَسْتُ صوتَه المُجَلْجِلَ في أعماقِ كِياني إلى الأبدِ، ولَطالَما كانَ يُحاصِرُ بصيرَتي، ويخترقُ وَعيي، ويُسدِلُ ظلامَهُ الرهيبَ على رؤيايَ. لَطالَما كانَ بيني وبينَ ذاتي، يستغرقُ في وحدَتِه العاتيةِ، يشدُّ بي إلى القسمِ الفارغِ منّي، فيُفلِتُ منّي عُمْقُ الحياةِ.

هكذا تَجَلّى لي هاتفٌ من سِمْتِ الأعماقِ، قَدَّ وعيي شَطرَين: فواحِدٌ عَمِهٌ يَلِجُّ في الدَيجور، من لحمٍ وعَظمٍ ودماءٍ، وواحدٌ راءٍ من طبيعةِ السَديمِ، يستغرقُ في النور، ويَشدّ بي إلى فوقُ.

هاتِفٌ من سِمتِ الأعماقِ هَبَّ في سَكينتِه الهادئةِ كالعاصِفِ المُزَلزِلِ، عَرّى ذاتي أمامَ ذاتي، فعادَ إليها لَهَبُ الغِبطَةِ، وقشعريرةُ الفرحِ، وضياءُ البَصيرةِ.

هامش:
وأمّا من يفعَل الحقَّ فيُقبِلُ إلى النور لكي تظهرَ أعمالُه أنّها باللهِ مَعمولَة.
(إنجيل يوحنا)

هامش:
أنا صوت صارخٌ في البريّة.
(إنجيل يوحنا)

١٧ ـ صوت:

كانَ في ذاتي ضِياعٌ
من نجومٍ،
تُوقِدُ وَعيَ السرْ
في صَمتِ العَشِيَّهْ،
وزمانٌ أبَدٌ يغرقُ
في ترنيمةِ الوَعيِ الشجيَّهْ ـ
كانَ في ذاتي فضاءٌ
يغزلُ التاريخَ
من أنشودةِ الأعلى الإلهيَّهْ.

كنتُ في ذاتي مَدارَ العالَمِ الأقصى
يُعيدُ النورَ نورًا،
وحروفَ الأبجديَّهْ...

«ماذا جَنيتَ، يا «فاوستُ»؟
« ـ جَنَيْتُ كلَّ شَيْءْ،
وعَيتُ كلَّ شَيْءْ،
عُدتُ إلى الضياءِ مِن قَرارةِ الدَيجورْ،
مُحَلِّقًا بجانحٍ من نورْ
عَبْرَ سَديمِ الفَيْءْ ـ
عَرَفْتُ كلَّ شَيْءْ:
رحَلتُ في مدائنِ الأسرارِ،
في «وثائقِ الوجودْ»،
عَبَرْتُ أزمانًا بلا حُدودْ؛
وعُدْتُ من تَحَوُّلِ السِفارْ
أحصُدُ ما يَكنُزُهُ الظلامُ والنهارْ
وأرتَقي مَعارِجَ الخلودْ ـ
عرَفتُ كلَّ شَيْءْ:

هامش:

كلّ ما للآبِ هو لي.
(إنجيل يوحنا)

١٨ ـ صوت:
ضوئي على وعْيِ الأبَدْ
شرارةٌ تخترقُ السديمْ
تجمَعُ وَعيَنا الجديدَ والقَديمْ
في مَعْبَدِ الخَلْدْ...

١٩ ـ صوت:
عارٍ أمامَ الضَّوْءْ
في حَضرَةِ الإلهْ،
يَنْهَلُ في النَّوْءْ
كرعشَةِ الحياةْ...

أنا الجِهاتُ والزمانُ والصدى،
أنا المدى
أنا الحياةُ والردى،
وفي قراري يعيشُ كلُّ شَيْءْ.
عَرَفْتُ كلَّ شَيْءْ...
عَرَفْتُ كلَّ شَيْءْ...»

ـ ٥ ـ

كيفَ انفتَحَتْ في داخِلي رائحةُ النور، وفاحَ بَخورُ الوعي في أرجاءِ كِياني، فاستَنارَ بيَ الفردوسُ، وشَعَّتْ مني تَرانيمُ الأثيرِ، تملأ سُلَّمَ الأصواتِ الكونيّة!

هنا، في إشراقِ الحرّيّةِ النِهائيّةِ تزول الحدودُ بيني وبينَ الذي هوَ.

هامش:
أنا قد جئتُ نورًا إلى العالم حتى كلُّ مَن يؤمِن بي لا يَمكث في الظلمة.
(إنجيل يوحنا)

هامش:
أنا هو الطريق والحقُّ والحياة.
(إنجيل يوحنا)

٢٠ ـ صوت:

في فراركَ السَفَرُ ـ
ما تُراهُ يَنفَجِرُ
إنْ رُئِيَتْ لنا مُقَلْ
أو تأنَسَنَ الحَجَرُ؟
تورُكَ الذي عَرَفَتْ
في قَـرارِهِ البَشَـرُ
فاضَ مثلَ أغنيةٍ
حينَ يلعَبُ الوَتَرُ ـ
في فراركَ السَفَرُ.

هنا، في قرارةِ الضوءِ الذي لا ينطفِئُ، ويملأ أرجاءَ الكونِ بذاتِه أقفُ عاريًا أمامَ المطلقِ، جزءًا منهُ، تَفتَرُّ فينا نِعمةُ «الكونيِّ».

عارٍ أمامَ وجهِكَ أيُّها الإلهُ ـ عارٍ أمامَ وجهي. أشهَدُ لكَ وتشهَدُ لي بعدَ هذه الرحلةِ السحيقةِ، فيُفعَمُ الكونُ بنا، والآبادُ والأقدارُ... عارٍ، عارٍ أمامَ وجهي، وقد أترِعَ كلُّ شيءٍ معنًى، وفاضَ الوعيُ عن أقصى الفرَحِ مِلْءَ ترانيمِ الغبطةِ اللامتناهية.

ـ ٦ ـ

فِضْتُ عنكَ وانفصَلت. رَحَلْتُ في الطينِ، في الشرقِ والغرب، في الجهاتِ، في الزمان. رحلتُ في الطين. رَكَّبْتُ لي جَناحَي «مِفيسْتو» وقلبَ «إبليسَ»، وحلّقتُ بعيدًا عن وجهِ الشمسِ، في صحراءِ الواقعِ، أنشِدُ النورَ خارجَ مَعاقِلِ

هامش:

أنتم من أسفَل، أمّا أنا فمن فوقُ. أنتم من هذا العالم، أمّا أنا فلستُ من هذا العالم.

(إنجيل يوحنا)

هامش:

ولكثرةِ الإثمِ تَبردُ محبّةُ الكثيرين.

(إنجيل متى)

٢١ - صوت:

بكَ اهتَدَيتُ واحتَمَيتْ.

بكَ اقتَشَيتْ.

ألفَيتُني أدَوبُ في الدُروبْ

كشمعةٍ تَطمُسُها الذنوبْ

فما عَرَفتُ أو رأيتْ...

٢٢ - صوت:

وحينَ عُدتُ نحوَ ذاتي

أضاءَ وجهُكَ العظيمُ

في حَياتي

فقُمتُ من بَلاقِعِ الظلامِ وانتَشَيتْ -

بكَ اهتَدَيتْ...

بكَ اهتَدَيتْ...

النور. رأيتُكَ في الطينِ تُصلَبُ كلَّ يومٍ وتقومُ - رأيتُني أصلَبُ كلَّ يومٍ وأقومُ. ومَعي تتصادَمُ الملايينُ الملايينُ في صَحارى الدَيجورِ نكرةً نافهةً على جبينِ الفراغِ...

يا إلهي، ويا مُخَلِّصي!

وحين استَنفدْتُ جزئيَ الداكنَ استيقظَ في كِياني هاتِفٌ أبيضُ، ردَّ إليَّ حرارةَ الخصبِ، وشدّني إلى جزئيَ المُضيءِ؛ فسقطَ إذ ذاكَ الجناحانِ والقِناعُ، وعانَقَني نورُ الشمسِ، والتهَبَ وجداني، فوجَدتُني أعتصِمُ بكَ لأكسِرَ حصارَ الفراغِ، وأقهرَ العَدَمَ. هكذا استَعَدتُ ذاتي، وأشرقْتُ فيها بكَ، لتُشرقَ بي، فعدتُ في نهايةِ الرحلةِ الهائلةِ لأرقى مَعارجَ «الفردوسِ المُستَعادِ»...

- ٧ -

عدتُ إلى الضياءِ من قرارةِ الدَيجورْ،

هامش:

أنا هو البابُ.

(إنجيل يوحنا)

هامش:

من يسمَعْ كلامي ويؤمِنْ بالذي أرسَلَني فلَه حياةٌ أبديّة، ولا يأتي إلى دَينونةٍ.

(إنجيل يوحنا)

٢٣ ـ صوت:

«ونَحْسبُ أنَّكَ جِرْمٌ صَغيرْ،
وفيكَ انطوى العالَمُ الأكبَرُ،
وعَرَّيْتَ ذاتَكَ فيكَ سَلاذًا،
ولَذْتَ بها خاطِرًا يُسْتَرُ،
فأشْرَقْتَ حتّى كأنَّكَ ظِلٌّ
يَطالُ الإلهَ، ولا يَعْبُرُ،
وأشرَقَ فيكَ الإلهُ، فصِرْتَ
وإيّاهُ نورَ الوَرى يَبْهرُ...»

مُحَلِّقًا بجانحٍ من نورْ
عَبْرَ سَديمِ الفَيْءْ.

عَرَفْتُ كلَّ شَيْءْ:
في رحلةِ الفَيْءِ التي عَبَرْتْ،
بحثْتُ عنكَ خارجَ الفردَوسِ،
وانكَسَرْتْ...
لكنّني استَعَدْتُ من غَياهِبِ العَدَمْ
مِعْراجيَ الذي بهِ مَرَرْتْ
وطَعْمَةَ النَدَمْ...

عُدْتُ إليكَ واحِدًا
يُشرِقُ في أبخِرةِ الزيتونِ والعَبيرْ،
يَكسِرُني ضِياؤُكَ المُشِعُّ في كِياني،

هامش:

في العالم سيكونُ لكم ضِيقٌ،
ولكنْ ثِقوا: أنا قدْ غَلَبْتُ العالَمَ.
(إنجيل يوحنا)

وتَنجلي المَعاني
عَبْرَ خُشوعِ الكونِ والأبَدْ.
يَخْرقُني ضِياؤُكَ المُشِعُّ في الجَلَدْ ـ
معًا نُشَرِّعُ الفردوسَ للكِيانِ،
معًا يُضيءُ وَجهُنا الأبَدْ...

عَرَفْتُ كلَّ شَيْءْ.
عَرَفْتُ كلَّ شَيْءْ.

٦٤ ـ صوت:
«وتَحسبُ أنَّكَ جِرْمٌ صَغيرٌ،
وفيكَ انطَوى العالَمُ الأكبَرُ.»

هامش:
أنا هو الألف والياءُ، البدايةُ والنهايةُ، يقولُ الربُّ.
(إنجيل يوحنا)

الرؤيا

عرَّجَ النورُ عليهِ فاستَفاقا:
دَربُهُ المِعراجُ
والدُنيا ذُنوبْ.
كانَ في ليلِ الخُطوبْ
يَنسجُ الدنيا رواقا/
في بحار الليلِ،
في آفاقِهِ،
يمضي انسِحاقا ـ
لم يكنْ يُبصِرُ في جنَّتِهِ
آلنورَ الطَروبْ
أو لهيبَ الحُبِّ
يُغويهِ احتِراقا.

وردةُ البَوْحِ صدى صَمتٍ
وعُمرٌ ليسَ يُغويهِ سَرابُ.
سِرُّهُ الكَشْفُ الذي يحمِلُهُ
في ذاتِنا عُمرٌ تُرابُ.

عَرَّجَ النورُ عليهِ ذاتَ يومٍ
فرَمى الجثَّةَ في الدربِ انطِلاقا،
وارتَدى بالوَعيِ ثوبًا أبيضًا
من رَذاذِ اللهِ:
وَعيًا
ليسَ تُغويهِ طُيوبْ ـ
عادَ من رحلتِهِ وَعيًا عَجيبْ:
شَفَّتِ الذاتُ
وصَفَّتْهُ افترِاقا.
صارَ وَعيًا أبيضًا،
وانداحَ طِيبْ.
صارتِ الرحلةُ وَعيًا وانعِتاقا.

وردةُ البَوحِ التي في دمِنا
صارتْ معَ الرؤْيا بَخورًا،
والعَذابُ.

ما تُرى السِرُّ الذي فينا؟:
إلهٌ
كلّما غُصْتَ عليهِ
زادَكَ الغوصُ انعِتاقا.

إنّه النورُ الذي يسكُنُنا:
يَمتَصُّنا فيهِ
فلا يَبقى سَرابُ.

نمشي لِنُفْعِمَ ذاتَنا بالضوءِ
في تَرنيمِ أحلامٍ شَجِيَّهْ،
نَلِدُ الحياةَ لِنُلْهِبَ الحيَواتِ نورًا
في قَرارَتِنا الفَتِيَّهْ
رَبّاهُ !
ماذا تَنْفَعُ الدُنيا
إذا عَصَتِ الحياةُ على بَصائِرِنا
ولَمْ تُؤْمِنْ بها كُلُّ البَرِيَّهْ ؟!